عبد الناصر
وشخصية مصر

عبد العزيز شرف
محمد ابراهيم شعبان

عبد الناصر
وشخصية مصر

تأليف

محمد ابراهيم شعبان
عبد العزيز شرف

الإهداء

الى الدكتور ابراهيم امام

الفــكر

والمنهــج

الاشراف الفنى :
صابر عبد الوهاب

تصميم الغلاف والخطوط :
يسرى موافى عرفات

مقدمة

تحاول هذه الدراسة فى عجالة سريعة أن تكشف عن الشخصية المصرية فى طبيعتها وحقيقتها التى أخذت تسفر عن نفسها خلال الفترة التى تناولتها الدراسة ، وكان جمال عبد الناصر اصدق مثل لها .

ومن اجل ذلك حاولنا جهد المستطاع تتبع الجذور الأصلية لشخصية مصر العربية فى تكاملها عبر التاريخ وكيف أنها رغم المحن والنوازل التى أحاطت بها لم تفقد مقوماتها الأصلية ، وان حاولت الظروف التى تعاورتها طمس هذه المقومات . فقد بقيت شخصية مصر العربية قوية أصيلة ، وقد اسهم فى كشف الغبار عن المقومات رجال الفكر المصرى الحديث ابتداء من رفاعة رافع الطهطاوى ثم أحمد لطفى السيد وحتى جمال عبد الناصر الذى أعاد بناء هذه الشخصية المصرية على شكلها المعاصر .

ذلك أن جمال عبدالناصر تسلم لواء الفكرة المصرية ، وبعد أن تناولتها جهود السابقين فأعادتها الى ذاتها التى تاهت فى غيوم العثمانية واستئثار الأتراك بالحكم والسلطان ، وكانت دعوة لطفى السيد « مصر للمصريين » هى الشعار الذى ارتفع فى عملية « الرجوع الى الذات » هذه .

ومن هنا جاء دور جمال عبد الناصر فى اعادة بناء الشخصية المصرية على النمط الجديد فى انطلاقتها تحررا من رواسب القرون .

وذلك ما يبلوره المناضل العظيم الرئيس أنور السادات حين قال فى الذكرى الأولى :

« ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنجال رجل عالم ممتاز حقيقة .. وجه وأدناه دكتوراه فخرية فى جامعة القاهرة والقى محاضرة وقال فيها ثلاث تواريخ اساسية فى خط سير ثورتكم أثناء محاضرته .. التاريخ الاول هو سبتمبر ١٩٥٢ تاريخ القضاء على الاقطاع .. التاريخ الثانى هو يناير ١٩٥٧ وهو تأميم المصالح الاجنبية وتحرير اقتصاد البلد من الاجانب .. التاريخ الثالث هو يوليو ١٩٦١ والقوانين الاشتراكية . انما قال حاجة ثانية .. قال

انه لاول مرة فى تاريخ مصر منذ ألفى سنة يحكمها مصرى .. هو جمال عبد النـــاصر . »

« سبق سنجور فى هذا أستاذنا الكبير الدكتور لطفى السيد .. لأول مرة منذ ألفى سنة اللى بيرد التحدى ده أصل اللى بيرد التحدى ده لازم طالع من التراب اللى هنا .. من هنا وجاى من الصعيد .. ما يقبلش تحدى لازم يرده .. اهانة لازم يردها .. قبل التحدى أمم قناة السويس » .

ويجمل بنا أن نختتم هده المقدمة بكلمات للأستاذ محمد حسنين هيكل ، تبلور هذا الدور فى عبارات بليغة . ذلك أن عبد الناصر « بكل عظمته ، لم يصنع مصر ، ولكن مصر ، بكل عظمتها هى التى صنعته ، ولو ولد فى غير مصر لما ظهر ، ولو ظهر فى غير مصر لما استطاع ..

« دوره البطولى كله جزء من قدرها التاريخى ..

« ان دور البطل ظاهرة مؤقتة فى التاريخ ، ويجب أن يكون كذلك ، لأن الأصل والأساس الباقى والخالد ، هو الشعب » .

ثم يبلور الأستاذ هيكل دور جمال عبد الناصر فى التاريخ المصرى ، والذى ترانا نحاول تحقيقه فى منهج هذا الكتاب :

« فاننا يجب أن نستشرف أفقا واسعا ، ذلك أن المعركة التى نخوضها الآن، أزمة سوف تمر ، وحدتها فى وجداننا تجىء من اننا لا زلنا فيها ، لكنها سوف تمضى ، كما مضت قبلها الأزمات فى تاريخ الأمم الحية ، ودور جمال عبـــد الناصر عندما نستشرف الأفق الواسع ـــ يتجاوزها فى الحقيقة .

« ان هناك انجازين بارزين فى دور عبد الناصر ، من وجهة نظر الحـــركة العامة للتاريخ :

أولهما : أنه وصل مصر بأمتها العربيـــة .

ثانيهما : أنه وصل أمته العربية بالعالم المعاصر .

وذلك الدور هو ما نعنيه باعادة بناء الشخصية المصرية فان كان هـــذا الكتاب قد وفق فى ابراز هذا المعنى فله من توفيقه ما أصاب . وان لم يـــكن فله حظ الاجتهاد .

وجل من لا يخطىء تحيزا أو قصورا فى عالم البشر

عبد العزيز شرف

محمد ابراهيم شعبان

ملامح على الطريق مع جمال على مدى ٣٠ سنة

ملامح على الطريق مع جمال
على مدى ٣٠ سنة

كلمة الرئيس أنور السادات

بسم الله ..

ايها الاخوة والأخوات اعضاء اللجنة المركزية ومن خلالكم اخاطب شعب مصر كلها الذى يعيش معنا الآن هذه اللحظات . وأخاطب أيضا شعوب أمتنا العربية كلها التى تهفو معنا فى هذه اللحظات الى موطن بطلها وقائدها وباعث نهضتها فى ذكراه الاولى .

انها لحظات شاقة جدا على نفسى أن اقف لاتحدث فى ذكرى جمال ولا اكتمكم انني كما تعودت .. وكما نشأت فى بيئة ساذجة فى القرية لم أستطع ابدا أن احزن كما يجب أن أحزن أو كما نتعود فى القرية ان نحزن على حبيب او صديق الى هذه اللحظات لم أستطع أبدا . غلبتنى الأحداث واكثر من ذلك فربما قد شعرت أن جمال من دار الخلد يقول لى لا تحزن امض فى الطريق أمضوا بالمسيرة أكملوا الرسالة من أجل ذلك سأتجنب بقدر ما استطيع أن أترك لنفسى العنان على سجيتى كفلاح لكى احزن على جمال لا مجال للحزن الآن وأمامنا معركة ــ معركة بالنسبة لعدونا الخارجى ومعركة للبناء الداخلى لا مجال للأحزان لعلى أستطيع بعد أن تنتهى تلك المعارك ان اخلو الى نفسى فأحزن كما يجب او كما تعودت فى قريتى وفى بيئتى أن احزن على حبيب او صديق .

كيف بدأت الثورة

ووجدتنى مرتاحا لخاطر الم بى ..

وأنا أقاوم الحزن ، وأغالب نفسى عليه .. ولكننى وجدتنى مرتاحا لخاطر هو أن أتحدث اليكم والى شعب مصر .. والى شعوب أمتنا العربية فى هذه المناسبة ، عن لمحات على الطريق الذى زاملت فيه جمال أكثر من ثلاثين سنة

(*) كلمة الرئيس انور السادات فى الذكرى الاولى لرحيل القائد الخالد .

.. عشناها شبابا يافعين .. ورجالا مكافحين .. وثوارا نمضى بأهـداف شعبنا مهما كانت النتائج ومهما كانت العقبات .. وجدتنى أرتاح الى هذا الخاطر .. ولكن وجدتنى من جهة أخرى أريد أن أتحدث اليكم حديثا طويـلا عن كل تلك السنين الطويلة التى زاملت فيها جمال .. كأخ .. وكصديق .. ثم قامت الثورة فاتضحت مواهبه وتكشف لنا هذا الأخ والصديق والزميل عن عبقرية فذة .. حقيقة .. لأول ما بدأ تنظيم الضباط الأحرار وأنتم أحق الناس بأن تعلموا كيف بدأت هذه الثورة .. وكيف قامت هذه الثورة ؟ لأول ما أقام جمال عبد الناصر تنظيم الضباط الأحرار،بعد عودته من السودان كان يخدم فى السودان ، وكنا قد بدأنا هنا فى مصر حركة الضباط الأحرار .. وعاد من السودان .. وتسلم زمام قيادة الحركة .. لاول ما بدأ اقام هذا التنظيم ليس على فلسفات ولا نظريات .. ولا معميات مما يتشدق به الساسة فى كل مكان .. وانما لأول ما اقام جمال هذا التنظيم سنة ١٩٤٢ .. حين تسلم قيادته اقامه على مبادىء وقيم هى الصداقة والوفاء والحب .

كان جمال محبوبا من كل زملائه ..

جدار الصداقة والحب والوفاء

كان جمال مثال الأخ والصديق والعون لكل من يريد العون . بهذا بدأ جمال تنظيم الضباط الاحرار وقبل أن تقوم المبادىء الستة أقام التنظيم على قيم نحترمها هنا فى بلدنا . الوفاء والحب والصداقة من أجل ذلك كانت أجهزة الدولة وأجهزة المستعمر وأجهزة الاستعمار الجديد لأنه فى خلال الحرب العالمية الثانية كانت أمريكا موجودة هنا وبدأت تمارس نشاطها برغم كل تلك الأجهزة استطاع جمال أن ينفذ من خلالها ليقيم تنظيم الضباط الأحرار على الصداقة والوفاء والحب . الصداقة التى تعرف فى بلدنا أنها تجعل من الصديق أكثر من الاخ . والوفاء الذى نقدسه هنا كما علمنا ترابنا وكما علمتنا أرضـنا الطيبة الأصيلة عبر آلاف السنين والحب المجرد للوطن ولكل القيم والمعـانى الشريفـة .

من أجل ذلك لم تستطيع ابدا كل أجهزة الدولة فى ذلك الوقت . البوليس السياسى المباحث المخابرات . المخابرات البريطانية وانضمت اليهم المخابرات الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية . لأنهم كانوا دخلوا المنطقة من جديد . لم تستطع أبدا أن تنفذ من هذا الجدار الصلب . جدار الصـداقة والحب والوفاء .

مبادىء الضباط الاحرار

في اول ما قام تنظيم الضباط الأحرار كان على هذه المبادىء ثم انتقل جمال الى المرحلة الثانية حين أرسى هذه المبادىء وحين صاغها بالصيغة التي استطاع أن يجمع بها النفر من ضباط القوات المسلحة بدأ في تكوين الخلايا ، عقلية تنظيمية رائعة .

قبل أن يتسلم جمال تنظيم الضباط الأحرار كما قلت لكم الآن كان هناك تنظيم وبدأنا فعلا في حوالى سنة ٣٩ وكانت هناك أكثر من محاولة كانت آخرها يوم أن كنا ننسحب من مرسى مطروح وكان اتخذ قرار هنا في مصر بواسطة علي ماهر رئيس الوزراء القرار المشهور بتجنيب مصر ويلات الحرب وان احنا لا ناقة لنا ولا جمل في هذه الحرب وعلى ذلك صدرت لنا الاوامر وكنا في مرسى مطروح في ذلك الوقت أن نعود الى القاهرة لكي نترك الصحراء الغربية لأن الايطاليين كانوا تقدموا الى الصحراء الغربية فبصدور قرار تجنيب ويلات الحرب صدرت لنا الأوامر ان نعود من مرسىمطروح الى القاهرة ويتمركز الجيش في القاهرة طلبوا الانجليز ان احنا نسلم سلاحنا هناك لهم يحاربوا به وافقوا الضباط الكبار ورفضنا احنا الضباط الصغيرين وكانت مشيئتنا وعدنا بسلاحنا كاملا كانت أول محاولة في هذا التاريخ في نزولنا من مرسى مطروح أعددنا العدة لأول ثورة ولكن لم نستطع أن ننفذها وسأحكى لكم عن السبب لما تسلم جمال زمام قيادة الثورة في سنة ٤٢ بعد عودته من السودان اعاد التنظيم على نسق الخلايا وبطريقة تنظيمية رائعة تدل على فكر تنظيمي مرتب واعي . كنا قبل جمال نعتمد على الأحداث صدر الينا الأمر بالنزول من مرسى مطروح قلنا نعمل الثورة مجرد مشاعر لأن جوهر التنظيم أو هيكل التنظيم اللي ممكن يدفع بأي عملية من العمليات للنجاح ويضمن لها النجاح مش موجود كان كلها مجرد مشاعر بتتفجر في نفوسنا كلنا فبنجتمع ونقول حا نعمل وبعدين لما بنيجي وقت العمل بنلاقي نفسنا محناش منظمين مفيش تنظيم معين يربطنا مفيش سلسلة معينة من التنظيم تربط بيننا فمكنتش بيتم عمل حصلت دي في نزولنا من مرسى مطروح بعد قرار تجنيب مصر ويلات الحرب وحصلت أيضا بعد ذلك يوم أن تقدم روميل في سنة ٤٢ ووصل الى العلمين ولم نستطع أيضا أن نقوم بالثورة حصلت المحاولة لكن لم نستطع أن نقوم بها لأنه مكنش فيه تنظيم كان هناك انفعالات وكان هناك انفعال بالأحداث ولكن لا يستند الى قاعدة تنظيمية ثابتة لما جه جمال واستلم التنظيم في نص سنة ٤٢ بدأ في تشكيل خلايا التنظيم وسلسلة التنظيم واستمر جمال من سنة ٤٢ الى سنة ٥٢ الى أن قامت الثورة عشر سنوات

يعمل ليل نهار يؤدى واجبه فى الجيش نهارا وفى الليل بيمر على جميع خلايا التنظيم الموجودة أو لانشاء خلايا جديدة .

زى ما قلت لكم أريد أن أضع ملامح على الطريق اللى مضيت مع جمـــال فيه أكثر من ٣٠ سنة لعلها تعطى بعض الضوء على عبقرية هذا الزعيم هذا المعـــلم .

قامت الثورة فى سنة ٥٢ وقبل أن تقوم الثورة للحق وللانصاف وللوفاء كان هناك مايسمى بالهيئة التأسيسية للضباط الأحرار تشكلت سنة ١٩٥١وهى التى تحولت بعد ذلك الى ما سمى بعد قيام الثورة بمجلس قيادة الثـــورة اما قبل قيامها فكان هناك اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار لأنه فى سنة ٥١ استشعر جمال أن التنظيم وقف على رجليه ويستطيع الآن أنه يكون له قيادة ويستطيع الآن أنه يبدأ ممارسة الهدف أو ممارسة عمله نحو الهدف المطلوب وهو الثورة والتغيير .

حقائق لا تغيب

هذه الهيئة التأسيسية للضـــباط الاحرار .. للتاريخ .. وللانصاف الذى جمعها وكونها هو جمال عبد الناصر .. هو الآن عند ربه .. ويستطيع أى مدعى أن يدعى أى شىء لكن الحقائق لا يمكن أن تغيب أو تخفى أبدا .. كون جمال الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار كقيادة للتنظيم من قبل قيام الثورة .. وقامت الثورة وتحولت هذه الهيئة الى مجلس لقيادة الثورة .. فى تقدير الموقف قبل قيام الثورة .. وأنا حكيت لكم قبل كده عن قرار قيام الثـــورة فى ٢٣ يوليو الماضى اللى اتخذه جمال .. لما قامت الثورة فى ليلة ٢٢ ـــ ٢٣ يوليو وفى صباح ٢٣ يوليو .. مضينا فى العمل الى جانب جمال وكان لا بد أن نحسم معركة الملك .. فى ٢٦ يوليو بالطريقة اللى حضراتكم لا بد قريتم عنها تم ارسال الانذار له .. وخرج الملك فى مساء ٢٦ يوليو .. وجينـــا يوم ٢٧ يوليو اجتمعت الهيئة التأسيسية لأول مرة بعد نجاح الثورة وخروج الملك كمجلس لقيادة الثورة .. لم تعد هيئة تأسيسية وانما أصبحت مجلسا لقيادة الثورة .. كان عددنا تسعة وكان واحد متغيب فكنا ثمانية فى ذلك الاجتماع . أول شىء عمله جمال ايه فى الاجتماع ده ؟ تنحى عن رئاسة الهيئة التأسيسية وقال بالنص الآتى : « الآن نجحت المرحلة الأولى من مراحـــل ثورتنا .. أنا بأجد لزاما على أنى أتنحى لكى تختاروا رئيسا لمجلس قيـــادة الثورة من جديد » .. مع أنه كان منتخبا رئيسا للهيئة التأسيسية من قبـــل بالاجماع . المعنى اللى وراء هذا علشان نعرفه وانتم أجدر الناس انكـــم تسجلوا هذا الكلام لان ده مبدأ هذه الثورة اللى انتم شايلين اليوم مسئوليتها

.. وانتم الآن مجلس قيادة الثورة بتاعها .. نجحت المرحلة الأولى قال ابدا .. انا بأتنحى وصمم على اجراء انتخابات جديدة بطريقة سرية .. قاومنا احنا السبعة وقلنا ده شيء بديهى مفيش داعى ما أنت رئيس الهيئة التأسيسية وانت رئيس مجلس قيادة الثورة .. قال أبدا .. انا متنحى .. نجحت المرحلة الأولى. لابد دى مرحلة جديدة احنا داخلين عليها. لابد أن نعيدالانتخابات قد يكون لكم رأى آخر .. أجريت الانتخابات وبطريقة سرية بورق مقفل .. فى مجلس قيادة الثورة فى القيادة فى كوبرى القبة .. وبالاجماع أعيد انتخاب جمال رئيسا لمجلس قيادة الثورة .. كانت أول مفاجأة دى فى الاجتماع لنا واعتبرناها مفاجأة .

...

لكن كان فيه مفاجأة ثانية مكوناش واخدين بالنا منها خالص .. احنا اعتبرنا ان باعادة انتخابه بالاجماع انتهى الامر وحنقعد نتكلم ايه الموضوع ــ الملك خرج امبارح .. البلد فى يوم وليلة اصبحنا مسئولين عنها .. قال لا .. فيه موضوع ثانى بيهمنى لازم أطرحه عليكم برضه ما احناش واخدين بالنا .. قال الحكم حايمشى ازاى ؟

ديكتاتورية واللاديمقراطية ؟ ما دام انتخبتونى ريس دلوقتى لمجلس قيادة الثورة .. قبل ما اقول بسم الله الرحمن الرحيم قولوا لى حانمشى ديمقراطية واللاديكتاتورية ، وزى العادة فكنا فى الهيئة التأسيسية كل واحد يأخذ الكلمة وهو آخر واحد بيتكلم .. احنا السبعة .. فضلنا الدكتاتورية وقلنا ما فى سبيل اطلاقا لتقويم الفساد فى هذا البلد والمظالم الا الديكتاتورية ، ولا بد من أن تقام المشانق فى الميادين العامة لخونة الشعب .. من خانوا الشعب .. السبعة .. احنا كنا ثمانية زى ما قلت لكم وواحد كان متخلف . السبعة وكأننا نتكلم بنص واحد الديكتاتورية ..

ومن بكرة لا بد من بدأ عملية تطهير البلد بالمشانق فى الميادين العامة .

تكلم جمال آخرنا . الله يرحمه وبدأ بشرح الظروف اللى قامت فيها الثورة وأن الشعب وجد متنفس بدليل ان احنا واحنا مجرد طليعة من القوات المسلحة وجدنا تأييدا ساحقا من الشعب كله خلال الثلاث أربع أيام اللى فاتوا الكلام ده كان يوم ٢٧ يوليو . طيب التأييد ده جه منين جه لان الشعب بيحس فعلا ان هذا العمل اللى احناعملناه يعبر عن ارادته .

ابتدأ لين ثم بدأ بعنف فاذا ما صدمنا الشعب وهو كان واقع تحت دكتاتورية الأحزاب بدكتاتورية من لون جديد المعن من دكتاتورية الأحزاب . والله

الاحزاب كانت بتعمل حساب للملك آل وخايفة وكانوا الى حدما فى دكتاتوريتهم ما بيصلوش الى حدود انما احنا ما فى ملك النهـــارده وما فى شىء أمامنا ونستطيع أن نفعل ما نشاء الى أين ؟ تساءل الى أين اذا طبقنا الدكتاتورية . قال ابدا .. وحتى اذا اخترتم واذا اخترت أنا معاكم الدكتاتورية فالانتخابات اللى أنتم عملتوها لمين . يمكن كانت المناقشة أخذت ساعة ونصف ساعة من ساعتين تعتبر لاغية لأن أنا بتكوينى لا أطيق أن أكون دكتاتور لسبب بسيط لانى لا أطيق أن يحكمنى دكتاتور . كيف تطلبون منى أن أكون دكتاتور ؟

وانتهى من حديثه قال اذا كان ولابد لرأيى أنا هو رأيه هوه فلنسلم البلد الى الأحزاب كما كانت بدلا من أن نصدم البلد صدمة عمرها بأن نقيم دكتاتورية أنكى من دكتاتورية الأحزاب لأننا مطلقين اليد والصراح وفى يدنا القوة والسلاح فلنسلم البلد أشرف لنا وأن نعود لأماكننا من أن نقيم حكم دكتاتورى بدلا من حكم ديموقراطى .

اشتد الجو واشتدت المناقشة ولجأ البعض منا فى حدة المناقشة بعـــد ثلاث ساعات قالوا نأخـــذ الأصوات حسب اللايحة بتاعتنا بتاعة الهيئـــة التأسيسية قالوا ناخد الأصوات . خذنا الأصوات . طلعنا سبعة ضد واحد . سبعة دكتاتورية وواحد ديموقراطية . اللى هو جمال عبد الناصر تدخلت وقلت نعيد المناقشة تانى لأن الجو كان باين واضح أنه يعنى مشدود جدا جدا جدا وكل منا له حجته وسبعة ضد واحد وانفعال وشباب مش زى دلوقتى . الزمن عمل فينا اللى عمله كان شباب متحمس ومنفعل دكتاتوريا .

طلبنا فتح باب المناقشة مرة أخرى بعد التصويت الأول لأنه كان واضح أنه حننتهى الى نهاية مش سليمة . .

وافق الكل على فتح باب المناقشة ساعتين ثانيين مناقشة فى نهاية الساعتين الثانيين بعد الثلاثة وكلهم طالبوا بأخذ الاصوات سبعة ضد واحد مرة ثانية . سبعة دكتاتورية جمال بيقول لا . أنا عند رأيى . عندئذ جمع جمال أوراقه .. المرة الوحيدة اللى تنحى فيها جمال قبل ٩ و ١٠ يونيو . جمع أوراقـــه وقال ربنا يوفقكم بس اعلموا أن الطريق اللى يبدأ بالدم لابد وأن ينتهى بالدم . ولكن طبقا للايحة الهيئة التأسيسية أنا بأخضع لراى الأغلبية وأنا ملتزم بيتى ولن آتى بأى شىء ضد الثورة ولا ضد عملكوا ولكن مخلصا وكأخ وكصديق أنا أقولكم النهارده الطريق حيدمر كل شىء .. وجمع أوراقه وروح بيته . الكلام ده كان حوالى الساعة واحدة ونص يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٢ . فى غمـــرة الانفعال والحماس اللى حاصل ما حسبناش أبدا الحسبة دى ان جمـــال حيسيبنا ويمشى أبدا أنا قلت لكم قبل كده الهيئة التأسيسية اللى احنا قاعدين

دول اللى همه مجلس الثورة مين اللى حوله لمجلس ثورة .. مين اللى جمعنا واحد على الثانى ؟ ما هو جمال . مين اللى مكون الخلايا . مين اللى يعرف الضباط الأحرار ؟ لعلكم الى يومنا هذا لا تعلمون أن اللى يعلم عدد الضباط الأحرار الحقيقى جمال واللى يعلم من خانته شجاعته ليلتهـــا وما خرجش . جمال ولغاية ما مات مارضاش يقول لنا على مين دول أبدا .. أبدا .

كان فيه وفاء فيه أخلاق . كان فيه مثل . خرج جمال وعاد لبيته والله زى ما بيقول المثل على رؤوسنا الطير .. نفتح المناقشة من جديد . بدأنا نتناقش خدنا لنا ساعتين لقينا بنلف فى دايرة مغلقة . ليـــه ؟ ادينا مهلة . المهـــم المحرك مع انه فى هذا الوقت كان جمال واحد منا كلنا تقريبا رتبنا واحدة سننا واحد دفعنا كلها تقريبا واحدة ومتقاربين من بعض زملاء على مستوى واحد . لسه ما كناش احسينا بما فيه من ملمات لكن جمال منذ أن كان فى الكليـــة الحربية له طريقة خاصة كان .

وله اسلوب خاص بيربط بينه وبين زملائه فيه احترام وفيه ود وفيـــه صداقة . لكن جمال كان دائما متحفظ عند حد معين . كلنا كنا ضباط صغيرين فى الميس بعد متاعب النهار وبعد اللى كانوا بيعملوه فينـــا الضباط الكبار والبعثة العسكرية الانجليزية وا وا وا . بنيجى فى الميس فى الليل ونتطلق . جمال متحفظ . مش سهل ان الواحد ياخد عليه أبدا هوه له حدود . لمـــا خرج زى ما بقولكم وراح لبيته فعلا ولم ورقه وقال أنا مستقيل من كل مناصبى بما فيها الجيش يعنى خلاص قاعد فى بيتى لا مجلس ثورة ولا أنا ضابط فى الجيش ولاحاجة أبدا واتفضلوا ربنا يوفقكم بس اعلموا ان ده طريق سينتهى نهاية مدمرة للبلد ولكوا وللكل . دخلنا فى مناقشة ساعتين زى ما قلتلكوا قعدنا فى دايرة مغلقة . وفجأة قفلنا النقاش .

أنا باحكى هذا وكأنه واقع أمامى الآن . فجأة قفلنا باب النقاش وقلنا ايه .. من غير المعقول ان جمال يسيبنا ويمشى . ده ده المحرك الأساسى كان كل منا كان بيخدم فى وحدة خارج القاهرة . واللى بيخدموا فى القاهرة كانوا مشغولين فى أمورهم الخاصة . والمتفرغ الوحيد اللى قاعد عشر سنين من ٤٢ الى ٥٢ جمال عبد الناصر . منشورات كان هو اللى بيعملها . خـــلايا بيكونها ضباط بيتصل بيهم . كل شىء . الدينامو . المحرك وبعدين للعـــلاقة الخاصة . الأخ والصديق والحبيب . عندئذ عدنا الى طبيعتنا . تركنـــا هيلمان مجلس قيادة الثورة والثورة اللى نجحت وفاروق اللى طلعناه امبارح والكلام ده كله وعدنا الى طبيعتنا .

جمال الأخ والصديق والحبيب لازم يعود بأى ثمن .

البعض منا قالوا الحل . قلنا الحل ايه . يعود جمال وليكن ما يكون .. بعد ذلك نفكر قبله لازم يعود جمال . الساعة ثلاثة صباحا اثنين منا عنده وجابوه من بيته الساعة ثلاثة صباحا وقعدناه فى كرسيه . على رأس الترابيزة بتاعة مجلس قيادة الثورة . وعدنا الى عملنا وكأن لم يحـدث شيء على الاطـلاق .

عندئذ فى هذه الجلسة قررنا حكاية تطهير الأحزاب اللى انتو لو عدتوا الى الصحف تقروها وطلبنا من الأحزاب أنها تطهرنفسها ودخلنا فى السلسلة الطويلة اللى انتهت بأننا فى يناير سنة ٥٣ الغينا الأحزاب وبعد المناورات اللى حصلت . وعدنا بدستور بعد ثلاث سنوات وخدنا لمجلس قيادة الثورة السلطة التنفيذية والتشريعية تلات سنوات من ٥٣ الى ٥٦ ووعدنا بالدستور فى ٥٦ اللى عملناه فعلا وأنجزناه فى سنة ٥٦ . أنا بأحكى القصة دى علشان أقول . أو أطلع منها انه جمال ما كانش شخص عادى فى وسطنا .

ما كانش انسان عادى فى وسطنا .

ما كانش زميل من الزملاء يعنى ما كنا كلنا فى مستوى واحد . جمـال كان له وضع خاص . بس لغاية دلوقت كنا لسه ما تبيناش لم تتفتح الملكات والقدرات لغاية هذه اللحظة . ولكن فى هذه المعركة زى ما حكيت لـكم كده . عاد الى مكانه منا على رأس مجلس قيادة الثورة وعاد واحنا شاعرين ان احنا عملنا انتصار كبير جدا .

عدت المرحلة دى كان وراها ايه ؟ زى عادته تفكير منظم . عقلية تنظيمية ومصمم لهذه الثورة أن تكون كما قال فى كتابه فلسفة الثورة . ثورتين فى وقت واحد لأول مرة فى تاريخ العالم وفى تاريخ الثورات .

ثورة سياسية وثورة اجتماعية . من هنا كان معارضته العنيفة انه لا اجراء غير طبيعى نأخذه أبدا فى ثورتنا . بل بالعكس ده احنا عايزين الشعب هذه الثورة تبقى للشعب بالشعب . علشان كده جه فى فلسفة الثورة بعد كـده وقال : ان احنا كان علينا ان احنا نخوض فى نفس الوقت ثورتين معـا . ثورة سياسية وثورة اجتماعية ... مشينا فى الثورة وضح لنا للان انه عقلية تنظيمية رائعة العشر سنين والتنظيم تم وليلة قيام الثورة والخطة والتنفيذ علما بأنه كان فيه عندنا فى القناة ٨٠ الف عسكرى بريطانى . مجهزين بأحدث الأسلحة لكن تمت الثورة بنجاح كامل .

وضح لنا الآن عقلية تنظيمية مبهـرة .

الأمر الثانى وعى وابعاد فى النظرة والشمول مش طبيعية ومش بتساعت سننا فى ذلك الوقت اللى يفكر فى ذلك الوقت أن الثورة لازم تقوم واحنا كنا فى ذلك الوقت ٣٤ سنة قلنا ان الثورة يجب أن تكون ثورتين فى آن واحد ثورة سياسية واجتماعية فى نفس الوقت لأنه لا قيمة لأى سياسى اذا كان الفرد اجتماعيا مش حر ايه قيمة الاستقلال اذا كان الفرد أو الفلاح فىارضهبيملكه اقطاعي وبيتحكم فيه زى ما هو عايز ايه قيمة الاستقلال ؟ بعد سياسى وشمول مبهر قطعا بالنسبة لسننا فى ذلك الوقت ولخبرتنا وتجربتنا ٣٤ سنة سن .

قامت الثورة . وجت سنة ٥٥ قبلها دخلنا فى معركة من أول يوم دخلنا فى معركة مع بريطانيا علشان الجلاء قامت حرب شعبية فى القنال علشان يحسوا تماما أنهم مش جايين يقعدوا فى القعدة يدافعوا على الشرقالأوسط لا ده لازم يدافعوا عن الشرق الأوسط زى ماكانوا متصورين ووضح لهم تماما انه مفيش جدوى من أنهم يقعدوا عشان يدافعوا يدافعوا عن نفسهم بس . وكانت مفاوضات الجلاء وتم الجلاء . وتم الاتفاق فى اكتوبر ٥٤ .

لكن لما تم الجلاء فى أكتوبر ٥٤ احنا عارفين الاستعمار واساليبه محبوش ان المسألة تفوت كده لأنهم أرغموا على هذا ارغاما فاصطنعوا شىء جديد عشان يملأوا به الفراغ زى ما كانوا بيقولوا ويسموه فى ذلك الوقت وقالوا حلف بغداد . اكتوبر ٥٤ اتفق على الجلاء ديسمبر بعدها بشهرين بالضبط ديسمبر ٥٤ أعلنوا حلف بغداد عشان ملء الفراغ فى المنطقة حاربنا الحلف . فى ٨ فبراير سنة ٥٥ ده تاريخ لازم تذكروه كويس وتسجلوه لما امريكا وبريطانيا لقوا اننا بنقاوم حلف بغداد بعنف وبشراسة ٥٤ بعد شهرين من اتفاقية الجلاء عشان وبعد ما جاء لنا نورى السعيد فى ديسمبر يبيع لنا حلف بغداد وما استطاعش انه يلاقى حد يشتريه عندنا هنا . فى ٨ فبراير سنة ٥٥ دفعوا اسرائيل واعتدت على غزة وضربت معسكر قتلت لنا فيه ٤١ واحد اداة العدوان اللى فى ايديهم أو الكرباج اللى شايلينه عشان يأدبونا به بتقاموا حلف بغداد ومش عايزين تخشوا فى مناطق النفوذ وواخدين خط تحررى طيب الكرباج جت اسرائيل واعتدت فى فبراير ٥٥ على غزة .

هنا يبرز جانب جديد من شخصية جمال أنا حكيت عن العقلية التنظيمية والموهبة التنظيمية الخارقة . وبعدين عن البعد والشمول فى السن المبكرة دى هنا فى هذه المعركة وضع جمال رجل التحديات . الرجل الذى يقبل التحديات . الرجل الذى يقبل التحديات .. منين ؟ من القوى الكبرى .. ويقف أمامها .

بعد ثالث تكشف لنا .. أما هجمت اسرائيل على غزة وقتلت لنا .. حسب الحسبة .. احنا ما عندناش سلاح .. الموردرين التقليديين للسلاح هى

بريطانيا لنا .. بريطانيا متفقة مع اسرائيل ومع أمريكا لان احنا شردنا عن الخط وعملنا اللى عملناه فيها ، وسنة ١٩٥٦ حتكون لازم مشيت من القاعدة حسب الاتفاق اللى تم فى أكتوبر ١٩٥٤ .. الا وقوة جديدة طالعة فى المنطقة .. مش بس كده .. لا .. ده لو رجعنا للتاريخ .. أيام محمد على وفى سنة ١٨٤٠ حينما اجتمعت أوروبا علشان توقف محمد على عند حده .. كان فيه هدفين وراء الاجتماع الأوربى .. أن لا تقوم فى مصر حكومة قوية .. وأن لا يكون لمصر جيش قوى .. ده سنة ١٨٤٠ .. بريطانيا هى بريطانيا سنة ١٨٤٠ هى بتاعة ١٩٥٥ اللى بيقود بريطانيا فى ذلك الوقت وزير خارجيتها كان الرجل المدلل مستر ايدن اللى ربته الامبراطورية البريطانية عبر ٣٥ سنة من الخبرة والحنكة وعلى طريقتهم وطلعوه سياسى من طراز ممتاز قد أى ايدن يسمح بأنه يجرى فى المنطقة اللى بيحيره ده ويقف جمال عبد الناصر ويقاوم حلف بغداد ويرفض .

وينكرش لهم حلف بغداد ، ويضطرهم الى الجلاء كان أمر غير مستساغ .. رجعوا لسياستهم بتاعة ١٨٤٠ ، وزى ما قلت لكم الكرباج اللى هيه اسرائيل .. فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ هنا يبرز الرجل الذى يقبل التحدى من القوى الكبرى .. حسب جمال حسبته .. ما عندناش سلاح .. المورد التقليدى بريطانيا .. طلبنا من أمريكا وبعتنا بعثة فمجاوبتش .. لأن أولاد عم .. موقفش ساكت .. جه مؤتمر باندونج فى تلك السنة .. عاد منه كسر لأول مرة فى تاريخ العالم الثالث وحركات التحرر الوطنى وفى تاريخ الشعوب الصغيرة احتكار السلاح .. وعقد صفقة الاسلحة فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ ردا على التحدى اللى حصل بتاع هجوم اسرائيل فى ٢٨ فبراير كرباج بيستخدم ضدنا لتأديبنا ، قال لا أنا بقة با جيب أحدث الأسلحة وعقد صفقة الأسلحة فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ .. قبل التحدى ما خفش ، ولم يتردد .

جانب تانى من جوانب الشخصية .. جمال زميلنا اللى معانا .. واللى احنا دفعة واحدة وأصدقاء .. جوانب غريبة عماله تتكشف لنا ..

فاتت سنة ١٩٥٥ وجت سنة ١٩٥٦ بأحداثها الكبيرة .. لما قبل التحدى وعقد صفقة الأسلحة فى سبتمبر ١٩٥٥ قامت قيامة أمريكا وكان فيها راجل بيعتبروه من السياسيين الخارقين للعادة اللى هو المستر دالاس .. قال أنا طيب لا بد أن أوقف عبد الناصر عند حده .. فى تلك السنة كنا دخلين فى مشروع السد العالى .. تنه يدحرجنا .. يدحرجنا ويماطل ويسوف لغاية ما وصلنا الى يوليو سنة ١٩٥٦ وبعد ما البنك الدولى وافق على التمويل ، نتيجة أن أمريكا موافقة . وانجلترا قالت حا اساهم بجزء .. و .. الخ . جه دالاس فى ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ راح مطلع بيان لا بد يودع هنا فى اللجنة

المركزية علشان كل دى وثائق تاريخية لازم تكونوا على علم بها .. البيان خلاصته الآتى.. لأن دى وثائق رسمية.. البيان خلاصته (ياشعب مصر أنت شعب مفلس ، ولن تستطيع أن تبنى السد العالى .. وميزانيتك لا تسمح بهذا .. والسد العالى عبىء لن تستطيع أن تتحمله ..لأن ده اكبر مشروع فى ذلك العصر .. فى ذلك الوقت من نوعه) . وبلهجة خبيثة استعمارية أن ما معناه (يا شعب مصر اخلصوا من عبد الناصر .. احنا حنعمل لكم كل حاجة .. حا نمشى وياكم) فى نفس البيان .. البيان ده كان فى ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ .. مرة أخرى بيان رجل التحديات .. قبل التحدى .. وبأقرر أمام حضراتكم كلجنة .

واجتمعوا فى لندن وقالوا جمعية المنتفعين وأوفدوا منزيس رئيس وزراء استراليا وفى ذلك الوقت منزيس رئيس وزراء استراليا ده اللى بعته ايدن ، والمنتفعين دول وأمريكا ودالاس وكلهم بيعتبرو قطب من اقطاب السياسة فى العالم .. ومن عتاة الاستعماريين وغلائهم .. وجه منزيس علشان يفاوض جمال عبد الناصر .. بعد نص ساعة بالضبط فى مكتبه فى مجلس قيادة الثورة .. ابتدى يكلم جمال عبد الناصر بلهجة التهديد راح قافل الورقة اللى قدامه وواقف وقال له اتفضل مع السلامة .. ببساطة .. ماض فى التحدى .. ماض .. وخرج منزيس .. رجع لهم فى لندن وقال لهم مافيش فايدة .. قامت المعركة الساخنة فى أكتوبر .. ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .. العدوان الاسرائيلى ثم الفرنساوى ثم البريطانى وراح جمال الأزهر يوم الجمعة ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ووقف على منبر الأزهر .. سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل مين ؟ .. بريطانيا فرنسا .. أسلحة حلف الأطلنطى .. وبريطانيا وفرنسا فى ذلك الوقت دولتين من الدول العظمى .. الجمهورية الرابعة الفرنسية جى موليه .. وايدن بتاع بريطانيا حزب المحافظين من وراهم جميع أسلحة حلف الأطلنطى واسرائيل بتهجم فى سيناء علشان تمهد لهم الطريق .. سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل .. قالها من على منبر الأزهر .. ضمير شعبنا لأنه ابن البلد ابن مصر ابن التراب .. ابن الصعيد .. جاى من تراب مصر من هنا .. مش تركى ولا البانى .. ولا خواجه .. لا ده من هذا التراب ومن صنع القيم الأصيلة سبعة آلاف سنة هنا فى هذا البلد .. حضارة وعمق واصالة وصلابة .. وقاتلنا .. وضربنا صحيح لكن ما سلمناش أبدا .. فى وقت من الأوقات ولأول مرة ياحكى البعض منا اللى كانوا فى القيادة ورحمهم الله لأن ينهار فى اعصابهم كان رده على هذا .. أنه يوم ٤ نوفمبر ركب عربية وسافر الى الاسماعيلية علشان يروح يقعد ..

فى بور سعيد ويحضر معركة بورسعيد فى ٥ نوفمبر ـــ اللى منعه كمال الدين حسين فى بور سعيد .. يكاد يكون قبض عليه لان كلمناه من هنا .. قلنا له رجعه حيقود المعركة ازاى ؟ ده نازلين فى بور سعيد .. نازلين يوم خمسة خلاص واضح من التهديد .. ومن يوم اثنين احنا بنتضرب بالقنابل .. قد يكاد يكون قبض عليه ورجعه مقبوض عليه رجعناه علشان نقعده فى مجلس قيادة الثورة هنا .. انما هو ردا على انهيار أعصاب البعض قال طيب أنا رايح أقعد فى بور سعيد اللى حينزلوا فيها واللى كان واضح أن فيها نزول مع الشعب حاجات جديدة بتنكشف لنا كل شوية عن جمال عبد الناصر .. واحنا قاعدين بنرقب وأنا قاعد بالذات بارقب وبافخر لانه الانســـان الفلاح منا اما بيكون له أخ أو صديق نابغة وبالشكل ده بيحس أنه هوه اللى كده. بيأخذه الفخر ما بيحقدش عليه .. أو ما بيحسدوش .. بيحس ان ده منـــه منه .. أنه طب ما هو ده أنا .. قاعد أرقب هذا كله .

انتهت معركة ١٩٥٧ .. ونرى ما عرفناه فى ٢٣ ديسمبر ثم انســـحاب انجلترا ، وفرنسا من بورسعيد .. وبعدها فى مارس تم انسحاب اسرائيل من سيناء وكسبنا المعركة .. انقذ جمال بقراره التاريخى فى ٣١ أكتوبر قواتنا العسكرية من أنها سيقة اليهود بيضربوها من الأمام والفرنساوين والانجليز بيضربوها من الخلف .. قراره مشهور بتاريخ ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .. واستمرينا فى البناء ومشينا .. مضت ســـنة ١٩٥٦ زى ما حكيت لكم وتم الجلاء فى أواخرها فى ديسمبر .. ١٩٥٧ جت فوجئنا بمعركة جديدة .. مستر دالاس ما هانش عليه أن احنا نطلع من المعركة كده قال طيب احنا ممكن نحقق أهداف العدوان اللى كان مفروض انه يتم بالحرب الساخنة بواسطة انجلترا وفرنسا واسرائيل .. بذل جهود كبيرة بعت لنا الأول قال أجروا ليه القناة وأديكم ألف مليون دولار عملية مغرية واحنا مضروبين .. وعندنا خطـــة طموحة .. وعملية مغرية أنه يعنى ألف مليون جنيه ونأجر بس القناة .. طبعا كانت لعبة مكشوفة .. ورفضنا لأن القناة مصرية وملك لنا ولن تعود أبدا لا ايجار .. ولا نفوذ لا حد فيها أبدا حاجة سماها خطة . الغزو ومن الداخل غيرنا احنا .. فى سنة ١٩٥٧ ابتدى أنه يحاصرنا بواسطة الأنظمة العربية اللى حوالينا .. فى نص ١٩٥٧ اتضح له انه اللى بيحاصرونا بيهـــم همه اللى انعزلوا مش أحنا .. راحوا قالبين العملية على سوريا .. وفى سبتمبر ١٩٥٧ بدأت حشـــود على سوريا .. بصينا لقينا جانب جـــديد . جمال عبد الناصر بيأمر وبتنقل البحرية بتاعتنا قوات الى سوريا وتصـــل ولا يعلم العالم والأساطيل الغربية والأسطول اللى فى البحر الأبيض لا يدرى الا ساعة ما نعلن احنا ان قواتنا وصلت فعلا وأخذت مواقعها فى سوريا .

كانوا بيجوا هنا صحيح يجتمعوا فى جانب الانتماءالعربى. أيامفاروق فى انشاص ويعملوا جامعة عربية والكلام ده كله كان موجود بصحيح .. باعتبار أنه مركز مصر الجغرافى والقيادى عبر التاريخ مافهش مناقشة بالنسبة للعــرب .

لكن انتماء مصر العربى لم يتأكد الا بجمال عبد الناصر .

زى ما قلت لكم ببساطة كده صبح الأمريكان الصبح واسطولهم الســـادس فى البحرالأبيض بطوله وعرضه .. فوجئوا أنه بحريتنا .

مركزية وأمام شعبنا فى مصر . وأما الشعب العربى أكمله ان قرار تأميم قناة السويس من صنع عبد الناصر كرد للتحدى .. وحده .. صحيح خد الاجراء الدستورى بعد ذلك .. انما الأساس فيه .. انا واخد الجانب من جوانب شخصيته بتاعة التحدى .. بيقولوا له الكرباج فى ٢٨ فبراير بيقولوا أنا ما بقبلش الكرباج .. ده أنا صعيدى ما اقبلش ان حد يعتدى عليه .. وعقد صفقة الاسلحة .. بيجى دالاس يعلن هذا التحدى ويرمى القفاز فى وشه .. بيرمى القفاز مش قفاز عشر قفازات على وش دالاس بتأميم قناة السويس وتكتم القرار وعمل كل الاجراءات له وجمع مجلس الوزراء فى آخر لحظة قبل اعلان القرار أما بقية التفصيلات فتمت كلها بالكامل حتى الجملة اللى حيقولها فى الخطبة واللى بناء عليها الناس يحللوها امر مراكز القوة هناك فى الاسماعيلية وبورسعيد وفى كل الأماكن .. اتفق على كل التفاصيل وجمع مجلس الوزراء فى آخر لحظة واخطرهم واعلن قراره فى ٢٦ يوليو . رجل التحديات .. غريب .. عقلية تنظيمية مبهرة وهوه ٣٤ سنة من ٣٤ و ٥ وهو ٣٤ لأنه ابتداها زى ما قلت لكم عشر سنين قبل قيام الثورة .. وهوه ٢٤ سنة عقلية تنظيمية مبهرة .. وكان لنا مناقشة فى حكاية التنظيم دى .. زى ما قلت لكم احنا كنا بننتهز كل فرصة علشان الاحداث الدولية بنفضـــل وتحركنا بدون ما نستند لتنظيم ، قبل كده ما كناش بنقــدر .. قلت لكم فى محاولتين مقدرناش نعمل حاجة .. هوه بيقول لا ما مفيش عمل فى الدنيا يتم بدون أنيستند الىتنظيم .. دهالكلام ده وهوه سنه ٢٤ سنة ، وابتدىالعملية دى فى عشر سنين .. عقلية تنظيمية مبهرة .. بعد ذلك جانب ثانى اللى حكيت لكم عنه وتكشف لنا وهوه سن ٣٤ سنة .. ابعاد وشمول فى النظرة وفى العمق غريب على من فى مثل سنة او فى مثل أوضاعنا اللى احنا كنا فيها وقتها .. الثلثة رجل بيقبل تحدى القوى الكبرى ويرد عليها .

ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنجال ده رجل عالم ممتاز حقيقة .. وجه وادناه دكتوراه فخرية فى جامعة القاهرة والقى محاضرة وقال فيه ثلاث

تواريخ أساسية فى خط سير ثورتكم أثناء محاضرته.. التاريخ الاول هو سبتمبر ١٩٥٢ تاريخ القضاء على الاقطاع .. التاريخ الثانى هو يناير سنة ١٩٥٧ وهو تأميم المصالح الاجنبية وتحرير اقتصاد البلد من الاجانب ... التاريخ الثالث هو يوليو ١٩٦١ والقوانين الاشتراكية انما قال حاجة ثانية .. قال أنه لأول مرة فى تاريخ مصر منذ الفى سنة يحكمها مصرى .. هو جمـــال عبد الناصر .

سبق سنجور فى هـــذا استاذنا الكبير الدكتور لطفى السـيد .. لاول مرة منذ الفى سنة اللى بيرد التحدى ده أصل اللى بيرد التحـدى ده لازم طالع من التراب اللى هنا .. من هنا وجاى من الصعيد ما يقبلش .. تحدى لازم يرده .. اهانة لازم يردها .. قبل التحدى أمم قناة السويس . نزلت القوات فى سوريا فى أواخر سنة ١٩٥٧ .. وقت ما كانت مهددة من جيرانها وفيه حشود عليها بدفع من أمريكا .

جانب جديد تكشف لنا الانتماء العربى بس الجانب ده يعنى للانصـــاف لازم أقول لكم . احنا بدأنا جريدة الجمهورية سنة ١٩٥٣ وذهل العـــرب لما لقوا افتتاحية مرة فى الجمهورية .. كان فيه خلاف بين سوريا والعراق .. ولقوا افتتاحية وهذه الافتتاحية بتقول ليـــه الخلاف ده يكون وان مصـــيرنا العربى كلنا واحد لازم هذا الخلاف ينتهى و .. و .. وكانت مفاجأة للعرب لانه جريدة الثورة وبقية الجرائد ما كانتش مهتمة قوى بهذا الموضوع وبهذا الخط ، انما عملية أنه يطلع افتتاحية الجرنال اللى بيعبر عن الثورة ، وما بقلوش أكثر من شهر أو اثنين .. تطلع الافتتاحية بتورى انتماء عربى أصيل .. هذه الافتتاحية كانت بقلم جمال عبد الناصر . لكن بقلمه للتاريخ يعيى بقولها لانى كنت فى ذلك الوقت مسئول عن جريدة الجمهورية ٥٣ لكن فى ٥٧ حقق الانتماء العربى واقعا وفعلا ومصيرا .

فى أواخر ٥٧ زرنا سوريا فى أوائل ٥٨ تمت الوحدة ودخلنا مرحلة جـــديدة من مراحل كفاحنا اللى انتهت بالانفصال سنة ٦١ ولكنها أيقظت ضـــمير الأمة بأكملهـــا .

حصل الانفصال صحيح ولكن كانت نتيجته على أعدائنا أشد وأنكى ممـــا كانت علينا احنا لانها أيقظت والى الابد ضمير الامة العربية وحركته .

يا ريت كان معانا النهاردة الأخ معمر يحكى لكم عن الأيام دى لما قرأ عن الانفصال وايه اللى عمله .

مش بس عملية الوحدة مع سوريا والانفصال وكذا وكذا وكذا ومساعدة سوريا فى ٥٧ ابدا .

ثورة الجزائر من ٥٤ بدأت من هنا ثورة الجزائر سنة ٥٤ باجتماع عند جمال عبد الناصر بابن بيلا .

بعد ذلك ثورة اليمن أيضا بكل ما حدث فيها .

كان غريب استحق بحق أن يكون أمام الجماهير العربية اللى تفجرت كل امكانياتها وأحست لاول مرة بحقيقة كيانها ووجودها وآمالها استحق أن يكون بطل هذه الأمة ورجلها الى أن مات والى أن تقوم الساعة سيظل جمال عبد الناصر هو رجل الأمة العربية وهو بلطها وهو مفجر كل ثورتها وامكانياتها .

جوانب بتتكشف لينا باستمرار ـ يهمنى أذكر لكم واقعة فى هذا الشأن حدثت سنة ١٩٥٥ لما باحكى عن جمال وباحكى عن كل ما كان أول بأول بينكشف من قدرات وامكانيات وأبعاد مش عايز أبالغ كثير وأقول انه فى سنة ٥٥ وكنت فى رحلة للهند وباكستان وافغانستان الى أندونيسيا ـ كنت فى ذلك الوقت سكرتير المؤتمر الاسلامى ـ زرت أكثر من ١٠ دول وعدت بانطباع غريب . سنة ٥٥ كان فيه عندنا هنا اقتراع المجلس القومى ـ ليه ـ سنة ٥٦ كانت جاية اللى احنا وعدنا البلد فيها بالدستور وفات سنة ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ ودخلنا ٥٥ والعوامل البشرية ابتدت وابتدى الصراعات وأنا فى الهند أقام لى الله يرحمه باندت نهرو حفل استقبال وكان موجود فيه كل المسئولين وكثيرون من أعضاء البرلمان سواء من حزب المؤتمر حزبه أو من المعارضة كلها ـ ولفت نظرى شىء غريب قوى : فيه اثنين أصدقائى نائب هندى وزوجته وأنا أعرف أنهم من اشد المعارضين لنهرو وكانوا زاروا القاهرة وزارونى وأعرفهم أصدقائى ـ النائب وزوجته ـ ودعوهم فى الحفل ـ وجم كانوا موجودين . شىء أثر فى جدا أن لقيت النائب وزوجته دخلوا ـ دول من أشد المعارضين لنهرو ـ دخلوا سلموا على نهرو بمنتهى الاحترام . قبلوه زى ما بيقبل الابن أبوه . وبيقدمهم لى نهرو قلت له دول أصدقائى الاثنين . قال لى انت عارف دول من المعارضين لى قال لى طيب أوعى الناس دول يعدوك ـ شىء من المزاح يعنى ـ وقعدنا نضحك فى هذا الوقت ـ لكن الطريقة اللى سلموا بيها على نهرو . شعرت ان ابن أو بنت بتسلم على أبوها . فى ذلك الوقت كان نهرو يمثل وحده الهند الهند فيها أكثر من ١٠٠ لغة يمكن ١٠٠ قومية ـ أجناس ـ ننتقل من مدينة الى مدينة ما يفهموش بعض لغويا ـ بين كلكتا وبمباى ما يقدروش يفهموا لغة بعض . بين بمباى ونيودلهى ما يقدروش يفهموا لغة بعض .. اللغة المحلية اللى بعد ما عملوا لغة واحدة . لكن وما معنى فيه ميت لغة فى الهند . لغاية النهاردة فيه ميت لغة فى الهند وقوميات واجناس واديان ومع ذلك ٥٠٠ مليون يمثلهم اب هو نهرو أشد المعارضين له يدخل وفى الحفل امامى ويعاملوه كاب تماما وهو يمزح ويمازحهم كأب تماما .

أنا لما رجعت هنا سنة ٥٥ بعد الجولة وشفت الصراع اللى عندنا فى مجلس الثورة تقدمت باستقالتى — أول استقالة تانى استقالة لى — قلت أنه أنا شفت فى الهند المنظر اللى انا حكيت لكم عنه ده — وانه رجل واحد استطاع أن يوحد ١٠٠ لغة وعشرات الاديان وعشرات الاجناس فكيف بنا احنا هنا . احنا شعب واحد وجيش واحد وجبهة واحدة . كيف بنا نعمل صراع . والله أنا باعتبر ان مهمتى فى مجلس الثورة انتهت انا بأثق فى الراجل ده — جمال عبد الناصر وعلشان كده أنا باضع ثقتى كاملة فيه ، وبأفوضه وانا واقف وراه .

محافظته على وحدتنا أولا — ثانيا بثقتى الكاملة فى ملكات هذا الإنسان . نوقش هذا الموضوع ومثبوت عندنا فى سجلات مجلس الثورة ورفضت الاستقالة لأنه فعلا مجلس الثورة فى سنة ٥٦ بعدها بسنة انتخب جمال رئيس الجمهورية داخل مجلس قيادة الثورة .

انما انا باذكرها لأنه بتبقى منحة كبرى من السماء . لما ربنا سبحانه وتعالى يقيم لشعب أب يستطيع فى كل الظروف ورغم كل الظروف أنه يجمع الشعب كعائلة واحدة ويتخذوا هم منه أب مهما كانت الخلافات ومهما كانت الأوضاع اللى بتكون موجودة أو الاحتفالات فى ديانة . لغات أجناس أى حاجة .

كفاية أنا طولت عليكم كثير الحقيقة — لكن زى ما قلت لكم صعب جدا أنه الانسان يقدر يركز فى ناحية واحدة فيه نواحى كثير جداً . بيهمنى أسجلها أمامكم يمكن لما باحكيها بارتاح . يمكن بتعوضنى حتى عن الحزن اللى كان لازم أحزنه واللى لسة ها أحزنه لما يجى الوقت المناسب لكن ها أحزنه بس لسه ما جاش الوقت المناسب . بس دا يمكن ينفس عنى ويريحنى اكثر .

أروع جانب من عبقرية عبد الناصر اللى غلب العملية التنظيمية واللى غلب نظرته الشمولية وهو لسه شاب وبتاع ثورتين فى ثورة واحدة ورجل التحديات ورجل بفكره بيعرف أن المصير العربى واحد وهو مصر شئنا أم أبينا اللى أروع من ده كله أن الثورة ابتدت بطليعة من القوات المسلحة وانتهت بتحالف قوى الشعب العاملة طليعة من القوات المسلحة تعمل وتبنى الى أن بتسلم الزمام تحالف قوى الشعب العامل ليس طبقة من الشعب ليس فئة من الشعب ليس جزء من الشعب أبدا — تحالف قوى الشعب العامل يضم الفلاح والمثقف والجندى والراسمالية الوطنية والمراة فى كل دول لكن كما لها تنظيم شباب أيضا فى كل دول لكن كمان له تنظيم .

كل البلد مجتمعة هى الثورة النهارده وزى ما قلت لكم فى ٢٣ يوليو الماضى أصبحت الثورة ملك الشعب وملك تحالف قوى الشعب العامل . زى ما أرادها

عبد الناصر تماما وزى ما كتب فى مذكراته محفوظة عندى ومذكراته المحفوظة عندى للتاريخ باكررها أمامكم وبخط يده . كان بيجهز لثـورة على الثورة للشعب . أظن احنا انجزناها ـــ أنجزناها الحمد لله وأنجزناها فى وقت نسبيا بيعتبر معجزة ولا زلنا ماضيين فيها ـــ لازلنا ماضيين فيها الى اليوم وسنمضى فيها بعد القوانين الجـديدة اللى صدرت أخيرا ـــ التنفيذ هـو العبرة مش القوانين اللى طلعت ـــ التنفيذ هو العبرة وان شاء الله حايمشى التنفيذ بنفس القوة الى صدرت فيها القوانين ـــ ان شاء الله للبناء الجديد للتغيير والبنـاء ولاتخاذ هزيمة ٥ يونيو نقطة انطلاق لبناء مجتمع جديد ودولة جديدة تقوم على العلم والايمان دولة لا يمكن لاى قوة انها تقهرها بعد كده .

لو وقفت أمامكم الساعات الطويلة لن أستطيع أن أفرغ أو أن أصور لكم كل الجوانب اللى لمستها بنفسى فى عبد الناصر . ولكن للانصـاف وللتاريخ يجب أن أسجل أمامكم أن شعبنا شعب مصر الصامد الاصيل هو اللى صنع عبد الناصر وهو اللى صنع كل هذا . عبد الناصر رمز للشعب عشان كـده لمـا مات عبد الناصر محصلش الفراغ اللى كانوا بيقولوا عليـه وما نهدتش الدنيا زى ما كانوا قاعدين منتظرين لاطلع ٣٥ مليون عبد الناصر رجل وامرأة دى روعة عبد الناصر وروعة شـعبنا . معرفش حاجة تحـير هى روعة عبد الناصر والا روعة شعبنا حاجة تحير الشعب هو الاصل شعب ٩ و ١٠ واحنا مجردين من كل شىء ويقف ويقول أبدا لن تقهر ارادتى ويصمد وهو أعزل من كل شىء ألا من ايمانه بالله وبنفسه وبارضه .. شعب ٩ و ١٠ اللى قال لعبد الناصر اقعد مكانك وكمل المعركة . وصـمد عبد الناصر ثلاث سنوات ونصف . ألم ومرارة ومرض ولكن بكل ذرة من ذاته بيشتغل ليل ونهار لبناء القوات المسلحة لبناء القـوة الاقتصـادية للعمل السياسى فى كل اتجاه . عبد الناصر ثلاث سنوات ونصف والمرض يداهمه فى كل لحظة ومبطلش العمل لحظة واحدة عشان يعيد البناء تانى وعشان يحقق للشعب ثقته بتاعت ٩ و ١٠ يونيو بارجع اقول الشعب شعبنا الاصيل بفلاحيه وعماله ومثقفيه وجنوده والرأسمالية الوطنية بكل من يعيش على هـذه الارض شعب أصيل صامد رائع هو اللى انبت عبد الناصر هو اللى أنبت كل هـذه الجوانب والخوارق وهو اللى كفيل أنه يستمر ويصبح كل شىء كما صحح فعلا فى ١٥ مايو الماضى عبد الناصر احب الشعب والشعب أحب عبد الناصر كما لم يحب زعيم من قبل . خمسة مليون خرجوا يوم جنازته عشان يودعوه لمقره الاخير ويقولو له حنكمل المشوار يا جمال .

وفاء ! وفى لشعبه فوفى الشعب له آمن بشعبه فأحبه شعبه بذل كل شىء الى آخر قطرة من حياته فأصبح رمز وأصبح مبادىء واصبح طريق لكل الشعب

النهاردة ككلمة أخيرة باجى على موقف اليوم بعد أربع سنوات من الصمود وزى ما سبق وقلت لحضراتكم فى حديثى السابق أن سنة ٧١ لا بد أن تكون حاسمة ان سلما أو قتالا مش لانه ده رغبة فى الاستعراض لا لانه بالدراسة الموضوعية العلمية البحتة لن نستطيع أن نسمح بأن تصبح قضيتنا أمر واقع كأى قضية من قضايا الامر الواقع اللى بتمر فى العالم ويمضى عليها ٢٠ سنة وتنتهى بالامر الواقع لا .. لن نسمح بهذا بعد دراسة طويلة مستأنية جدا لا بد أن تكون سنة ٧١ سنة فاصلة وأنا ما بخشاش فى هذا القوى الكبرى عشان يبقوا سامعين امريكا بالذات احنا فعلنا كل ما نستطيع الى الحد اللى أمريكا قالت لن نستطيع أن نطلب منكم شىء أبدا أبدا الى اليوم بتقول هـذا فعلنا كل المستطاع .

ولكن لما الامر يتعلق بمصيرنا وأن المسألة أمر واقع ينتهى بأن اسرائيل تقع على الضفة الشرقية وأمر واقع والقضية تروح فى زوايا النسيان أو تتركن فى ركن فى الامم المتحدة احنا لن نقبل هذا . سندخل المعركة وليكن ما يكون . احنا قادرين أن نتحمل الضربات مش حاكون مباهى .

لا أنا باقول أن احنا قادرين أن نتحمل الضربات بس باقول احنا قادرين أيضـا أن ننزل بعدونا ضربات أشد التبجح اللى ماشى فى المنطقة بواسطة اسرائيل والاساليب اللى بتستخدم ما عدناش نسمح تانى أبدا العين بالعين والسن بالسن زى ما أنا قلت قبل كده يفهمـوها كويس أوى فى اسرائيل الشريعة دى . سنتلقى ضربات مستعدين بنجهز نفسنا لنتلقى ضربات لكن يجهزوا نفسهم أيضا عشان يتلقوا ضربات أعنف وأعمق مهما كلفتنا .

كرامتنا مبنقدرهاش بتمن أبدا .

شرفنا مبنقدرهوش بتمن أبدا .

قبل ما أختم كلمتى لازم فى ذكرى عبد الناصر ومن هذا المكان أتوجه باسمكم وباسم شعب مصر ومن قبل كل شىء باسم روح عبد الناصر أتقدم بتحية حارة لغزة وأهل غزة الابطال المكافحين الشرفاء المناضلين ومن هذا المكان باقول لهم أذكروا دايما أن ٧١ ستكون باذن الله سنة فاصلة أصبروا قلبنا كله معاكم .

اخواننا اللى شاركونا فى هذا الاحتفال فى دول ميثاق طرابلس الرئيس معمر وشعب ليبيا والرئيس حافظ وشعب سوريا والرئيس جعفر وشعب السودان باتوجه لهم نيابة عنكم وعن شعبنا بكل التحية والتقدير كل ما شاركنا وكل من شاركنا هذه الذكرى ذكرى البطل بطل الامة العربية اللى فجر حقيقة الامة العربية وإمكانيات الامة العربية واستشهد فى سـبيل الامـة العربية جمال

عبد الناصر باحييهم جميعا كل من اشتركوا أو كل من أقام معنا فى هذه المناسبة حفلات لذكرى عبد الناصر باتوجه لهم نيابة عنكم ونيابة عن الشعب المصرى بكل التحية وبكل التقدير .

وباتوجه لكم بالشكر ولشعبنا واذا كنا أوفياء لعبد الناصر ونحن أوفياء فعلا فعلينا أن نكمل المسيرة وأن نكمل الثورة. علينا أن نحقق كل ماكتبه عبدالناصر بخط يده وتركه لنا . علينا ليس فقط أن نحققه بل علينا أن نتجاوزه أكثر لكى نثبت لأجيالنا من بعدنا ان هذا الشعب لايموت أبدا وأن هذا الشعب متجدد دائما وأن هذا الشعب خالد أبدا وأن هذه الارض ستظل بعون الله حـــرة شريفة كريمة أرضا للشرفاء للأحرار أرضا لكل من يبغى فى هذا العالم المثل المثل التى تنبع وتترعرع من الأصول وتنبت وتترعرع من الحرية والكرامة.

والسلام عليكم ورحمة الله ..

الفصل الأول

طبيعة الشخصية المصرية

« ان هذا الجيل من شعب مصر على موعد مع القـــدر • وقد قدر لهذا الجيل أن يعيش ليرى عودة الحلم الضائع ، وقدر لهـــذا الجيل أن يتمـــكن من الانطلاق الى نـــور الحضـــارة وان تخلص أفكاره من بقـــايا الأغلال ، وقدر لهذا الجيل أن يشهد بعينيه قوات المحتل الغريب تتسلل خارجة عائدة من حيث أتت •• هذا هو موعـــد جيلنـــا مع القدر : فرحة بنصر تشهدونه يبلغ غايته، ومسئولية غايات جديدة لابد لها من كفاح •• سودوا بأمر الله فى وطنكم ، واحكمـــوا وشاركوا شعـــوب الارض فى بحثهـــا عن السلام وعن حياة مطمئنة » •

جمال عبد الناصر
عيد الجلاء — ١٨ يونيو ١٩٥٦

« لقد قضيت الأيام الأخيرة كلها أفكر ، وكنت بمشاعرى مع شعبنا العظيم فى كل مكان فى القرى ، وفى المصانع وفى الجامعات .. وفى المعامل .. فى المواقع الأمامية فى خط النار المواجه للعدو مع جنودنا .. وفى البيوت الصغيرة المضيئة بالأمل فى مستقبل أفضل . كنت مع هؤلاء جميعا مع الفلاحين ، ومع العمال ، والمثقفين والضباط والجنود أحاول أن أتحسس وأن أتفاعل بفكرى مع فكرهم ..

« كانت أصابعى على نبض هذه الأمة .. صانعة الحضارة .. صانعة التاريخ .. صانعة المستقبل .. وكانت أذناى على دقات قلبها الذى ينبض دائما بالحق والخير والسلام .. » .

جمال عبد الناصر

١٦ أكتوبر ١٩٦١

« على أن روح هذا الشعب لم تستسلم وانما استطاعت تحت المحن العصيبة أن تختزن طاقات تحفزت لاطلاقها فى اللحظات المناسبة ».

اذا كان الاجماع على أن الحياة فى مصر قد انفردت بطابع خاص فرضته عوامل محددة ثابتة امرا معلوما ، فان المؤكد أن الشخصية المصرية تستمد أصالتها من أصالة الحياة فى مصر ، الامر الذى يجعل القدرة على المقاومة والتحمل من الصفات المتأصلة فى هذه الشخصية المصرية . ولعله من أجل ذلك احتفظت مصر بكيانها فى جميع العصور التاريخية التى مرت بها .

هناك الجغرافيون الذين درسوا هذه الشخصية دراسة جديدة ، كما فعل الدكتور جمال حمدان ، الذى اكد صعوبة تركيز الشخصية الاقليمية فى معادلة موجزة ، لا سيما اذا كانت غنية خصبة كشخصية مصر . ولكن البعض كثيرا ما زدد أن مصر « أرض المتناقضات » ، ربما تحت تأثير التباين الشديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة من ناحية ، أو من ناحية أخرى بين خلود الآثار القديمة وتفاهة المسكن القروى ، أو بين الوادى والصحراء حيث يتجاوران جنبا الى جنب ، ولكن كما تتجاور الحياة والموت ، ونظرة هؤلاء كما يقول الدكتور حمدان نظرة ضيقة إن لم تكن سطحية لانها لا تعرض الا لجانب واحد من مركب عريض ، ذلك أن حالة مصر نادرة بين الاقاليم والبلاد من حيث السمات و القسمات التى تجتمع فيها ، وكثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك ، لكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقيقة . فهى بطريقة ما تكاد تنتمى الى كل مكان دون أن تكون هناك تماما . فهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا ، ولكنها تمت الى آسيا ايضا بالتاريخ وهى متوسطية دون مدارية بعروضها ، ولكنها موسمية بمبانيها واصولها . وهى وان كانت أصلا موسمية فى مصدرها فقد اصبحت موسمية دائمة أخيرا على ما فى ذلك من تناقض . هى فى الصحراء وليست منها ، انها واحة صحراوية ، بل ليست بواحة وانما شبه واحة هى . وهكذا يحدد الدكتور حمدان ابعاد الشخصية المصرية بأنها لا تجمع بين الاضداد والمتناقضات ، ولكنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية ، تصل بها الى التجانس والوحدة بسبب النيل والصحراء ، المركزية لضيق مساحة المعمور ، تعادل الموضع والموقع فى احوال القوة وتخلف الموضع عن الموقع فى أحوال الضعف ، ملكة الحد الاوسط وتجعلها سيدة « الحلول الوسطى »

تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة ، بكل معنى الوسط الذهبى ، ولكن ليس أمة نصفا اوسط فى الموقع والدور التاريخي والحضارى، فى المواردوالطاقة، فى السياسة والحرب ، فى النظرة والتفكير ... الخ . ولعل فى هذه الموهبة الطبيعية سر بقائها وحيويتها على العصور ورغمها . ان مصر جغرافيا وتاريخيا تطبيق عملى لمعادلة هيجل : تجمع بين « التقرير » و « النقيض » فى «تركيب» متزن أصيل . ونحن لهذا لا نملك الا أن نقول اننا كلما أمعنا فى تحليل شخصية مصر وتعمقناها استحال علينا أن نتحاشى هذا الانتهاء : وهى «فلتة جغرافية» لا تتكرر فى أى ركن من أركان العالم ، فالمكان ، الجغرافيا ــ كالتاريخ ــ لا يعيد نفسه أو تعيد نفسها . تلك هى حقيقة عبقريتها الاقليمية جغرافيا(١) .

وانطلاقا من هذا المفهوم العملى لشخصية مصر يمكننا ان نقول أن الشخصية المصرية قد استمدت أصالتها من اصالة هذه الشخصية الأم ، وطبعتها بطابعها الأصيل .

فهى شخصية توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل وأصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من غيرتها على المال والثروة ، ثم هى أمة ذات أرزاق مطردة ومعيشة مستقلة لا يعنيها صلاح الحاكم كما يعنيها صلاح الأرض والسماء والعوارض والاجواء وهى كما يقول الاستاذ العقاد رحمه الله ، اذا دعاها الحاكم الى حرب لا تعنيها ذلك شأنه وليس بشأنها وتلك خسارته وليست بخسارتها، أما اذا أصيبت فى عقائدها وموروثاتها أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومرافقها فهناك يستعصى قيادتها كأشد ما يستعصى قياد أمة ، وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها ، ولسعد زغلول رحمه الله كلمة بليغة فى هذا المعنى قالها للانجليز فلمست من نفوس أذكيائهم جانب الحصافة وجانب الفكاهة فى لمحة واحدة ، وجاءت فى موقعها وأوانها لانها قيلت على آثار الحرب العظمى أيام كان تحضير الارواح شغلا شاغلا لكل من فقد عزيزا أوشك فى دين ، قال رحمه الله :

« اننا لو استحضرنا اليوم روح يوليوس قيصر وسألناه عن الامتين اللتين جشمتاه أكبر العناء وحرمتا عليه الراحة لقال لنا انهما هما المصريون والانجليز(٢) .

وفى ذلك ما يؤكد أن مصر كانت دائما شعبا محاربا ، بقدر ما كانت شعبا بناء ، فكانت الشخصية المصرية قديما وحديثا شخصية محاربة ، كما كانت

---

(١) د. جمال حمدان : شخصية مصر ــ دراسة فى عبقرية المكان .

(٢) عباس محمود العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية .

الشخصية الصانعة والزارعة ، ذلك أن هـذه الشخصية المصرية حاربت فى الجيوش المنظمة ولقيت فى حروبها أعـداء ذوى بأس كالترك والعـرب والروس ، فكانت مثلا فى الشجاعة والنظام ولم يقل عدو قتال ولا عدو جنس أنهم نكلوا عن مواقف الثبات والاقدام(١) .

ومن سمات هذه الشخصية المصرية : وحـدة الشعور وعمق الاصالة الدينية ، ذلك أنه كما يقول الدكتور حسين فوزى النجار : لا نرى أمة من أمم العالم يجتمع لافرادها من وحدة الشعور ما اجتمع للمصريين ، فهم يحسون احساسا ويفكرون تفكيرا متجانسا يدفع بهم الى اتجاهات متشابهة يجمعون عليها ، ويؤمنون بها ، فلا يشذ عنها فرد ولا يخرج عنها انسان بالرغم مما قد يبدو من تناقضـهم وتباين آرائهم فى النظر الى الاشياء والمواقف الجديدة ، فهم لايختلفون حتى يجمعوا ، ولا تتباين آراؤهم حتى تتحد فى الغاية ، وتسلك مجراها المعلوم .

وهم حين يختلفون وحين يجمعون لا يفكرون فى اتجاهات هذه الاحاسيس المختلفة ، ولكن وحدة الشعور التى تميـز اتجاهاتهم جميعا والتى تتسم بها اهدافهم ترينا مدى ما فى هذه الاحاسيس من وحدة وتجانس ، وترينا مدى اجماعهم على غرض واحد واقدامهم على فكرة واحدة . وتبدو هذه الظاهرة من وحدة الشعور والتجاوب النفسى اقوى ما تكون حين يتجه المصريون جميعا الى عمل معين ، أو حين تلم بهم عادية من العوادى تهدد وجودهم أو قوتهم أو عقيدتهم وبعض تقاليدهم ومأثوراتهم(٢) .

وهذه الظاهرة من وحدة الشعور هى التى تحميهم من الانهيار الذى يصيب الامم حين تهرم وتشيخ ، فتجدد من شبابهم وتبعثهم أمة فتية قوية كأشبـد ما تكون الامم حيوية ونماء ، وكأن عوادى الزمن لم تكن قد اصابتها بالامس وهدت من كيانها فى الماضى ، ولقد يخطىء الانسان — على حد تعبير الدكتور النجار — حين يشاهد علامات هذا البعث الجديد ، فيظنه خلقا جديدا لا يمت الى الماضى بصلة ولا يتصل به بنسب ، ولكن هذه الجذور العميقة من وحدة الشعور التى تربط المصريين جميعـا بعضهم ببعض كما تربط ماضـيهم بحاضرهم هى التى حفزت بعثهم وأيقظتهم من سباتهم ، فاذا هم يبهرون العالم بالبعث الجـديد .

وهذا ما جعل جمال عبد الناصر يؤكد فى الميثاق ، ان هذا الشعب استطاع «بصدقه الثورى» ، وبارادة الثورة العتيدة فيه ، أن يغير حياته تغييرا اساسيا

---

(١) عباس العقاد : نفس المرجع .
(٢) د. حسين فوزى النجار : لطفى السيد والشخصية المصرية .

وعميقا فى إتجاه آماله الانسانية الواسعة : . ان اخلاص الشعب المصرى لقضية الثورة ، ووضوح الرؤية أمامه ، واستمراره الدائب فى مصارعة جميع أنواع التحديات ، قد مكنه دون أدنى شك من تحقيق نموذج رائع للثورة الوطنية ، وهى الاستمرار المعاصر لنضال الانسان الحر عبر التاريخ من أجل حياة أفضل طليقة من قيود الاستغلال والتخلف فى جميع صورها المادية والمعنوية .

ومن البديهى ان نذهب اذن الى ان وحدة الشعور لدى المصريين هى التى قومت شخصيتهم ، وتلك هى الحقيقة التى اهتدى اليها جمال عبد الناصر فى تحليله لطبيعة الشخصية المصرية وانطلاقتها الثورية ، وهو يستوحى نضالها ومقومات هذا النضال . ذلك أن « طاقة التغيير الثورى ، التى فجرها الشعب المصرى يوم ٢٣ يوليو تتجلى بكل القوى العظيمة الكامنة فيها اذا ماعادت الى الذاكرة كل جحافل الشر والظلام التى كانت تتربص بكل عود أخضر للأمل ينبت على وادى النيل العظيم » .

والصورة يرسمها جمال عبد الناصر دقيقة لجحافل الشر والظلام التى كانت تتربص بانطلاقة الشخصية المصرية ، فلقد : « كان الغزاة الاجانب يحتلون ، على أرضه ، وبالقرب منه ، القواعد المدججة بالسلاح ترهب الوطن المصرى وتحطم مقاومته » .
وكانت الاسرة المالكة الدخيلة تحكم بالمصلحة والهوى وتفرض المذلة والخنوع .

وكان الاقطاع يملك حقوله ويحتكر لنفسه خيراتها ، ولايترك لملايين الفلاحين العاملين عليها غير الهشيم الجاف المتخلف بعد الحصاد . وكان رأس المال يمارس الوانا من الاستغلال للثروة المصرية بعد ما استطاع السيطرة على الحكم وترويضه لخدمته .

ولقد ضاعف من خطورة المواجهة الثورية لهذه القوى المتحالفة مع بعضها وضد الشعب ، أن القيادات السياسية المنظمة لنضال الجماهير استسلمت واحدة بعد واحدة ، واجتذبتها الامتيازات الطبقية وامتصت منها كل قدرة على الصمود ، بل واستغلتها بعد ذلك فى خداع جماهير الشعب تحت وهم الديمقراطية المزيفة .

وحدث نفس الشىء مع الجيش الذى حاولت القوى المسيطرة المعادية لمصالح الشعب أن تضعفه من ناحية ، وأن تصرفه من ناحية أخرى عن تأييد النضال الوطنى ، بل وكادت أن تصل الى استخدامه فى تهديد هذا النضال وقمعه .

وفى مواجهة هـــذه الاحتمالات ، صباح يوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ رفع الشعب المصرى راســـه بالايمان والعزة ، ومضى فى طريق الثورة مصمما على مجابهة الصـــعاب والاخطار والظلام ، عاقدا العـــزم ، فى غير تردد على احراز النصر توكيدا لحقه فى الحيـــاة مهما كانت الاعبـــاء والتضحيات .

ويقول جمال عبد الناصر :

« ان قوة الارادة الثورية لدى الشعب المصرى تظهر فى أبعادها الحقيقة الهائلة اذا ما ذكرنا أن هذا الشعب البطل بدأ زحفه الثورى من غير تنظيم سياسى يواجه مشاكل المعركة ، كذلك فان هذا الزحف الثورى بدأ من غير نظرة كاملة للتغيير الثورى » .

ان الارادة الثورية التى يتحدث عنها عبد الناصر ، هى ما نعنيه بوحدة الشعور لدى هذا الشعب البطل ، التى نمت بمرور الزمن وكلما تقادم عليها العهد ازدادت أصالة وعمقا . وهذه الارادة الثورية التى تميزت بها الشخصية المصرية هى التى قومت شخصية المصريين ، تاريخيـــا ، وربطت حاضرهم بماضيهم ، واكسبتهم تلك القدرة البارزة على النضال والمقاومة ، وصـــانت تراثهم ومقدساتهم وابقت على تقاليدهم حتى لكأنما يعيش الفـــلاح المصرى كما كان يعيش اجداده فى عصر الاهرام كما يقول الاستاذ غربال بالرغم من أن الريف المصرى — كما يقول — هو الذى كان « يتلقى موجات النازحين الغرباء ولكنه كان كذلك المفترس الذى لا يشبع لهؤلاء النازحين » .

يقول كون : « لا بد ان تظل مصر القديمة ابرز مثال معروف فى التاريخ حتى الآن لمنطقة معزولة طبيعيا أتيح فيها للأنواع الجنسية المحلية الاصيلة أن تمضى فى طريقها لعدة آلاف من السنين دون أن تتأثر اطلاقا باتصالات أجنبية » . . ويقول برودريك « . . . من الواضح طوال الستة آلاف سنة الاخيرة أو يزيد انه لم يكن هناك اى تغير ملحوظ فى مظهر جمهرة المصريين . فالبداريون ، واهل النقادتين ، ومصريو الاسرات والفلاحون الذين تراهم يعملون فى الحقول اليوم ، كلهم من نفس النمط القاعدى — المتوسطى » .

وهذا الثبات وحده جدير بالتساؤل ، لا لانه يتحدى البعد الزمنى الطويل فحسب ، وانما لانه — كمـــا يقول الدكتور حمـــدان يتحدى كذلك القاعدة الاصولية من أن البيئات الغنية تجنح كمناطق اغراء وجذب بشرى الى الخلط التنافر الجنسى . ولكن الذى يفسر هذا هو التعارض بين أثر الموقع وأثر الموضع . فالموقع مركزى مطروق بل قلب دوامة بشرية ، والموضع غنـــى

ولكنه محمى معزول بدرجة لعبت غلالة الصحراء حوله دور « ماصة الصدمات او المصفى » الذى غربل الموجات الداخلية وكسر حدتها وأخضعها للون قاس ولكنه صــحى من الاختيار الطبيعى . واذا كان النطاق الساحلى الشمالى ابتداء من سيناء حتى مريوط ممرا عبوريا مطروقا ، فمن الراجع كما حدث فى عصور ما قبل التاريخ أن كثيرا من الموجات التى انتقلت من غرب آسيا الى شــمال أفريقيا اخترقته دون أن تمس جسم مصر تماما أو أن تؤثر فيه بكثير أو قليل .

يقول جمال عبد الناصر ان « مصر بالذات لم تعش حياتها فى عزلة عن المنطقة المحيطة بها ، بل كانت دائما — بالوعى ، وباللاوعى فى بعض الاحيان — تؤثر فيما حولها وتتأثر به ، كما يتفاعل الجزء مع الكل وتلك حقيقة ثابتــة تظهرها دراسة التاريخ الفرعونى صانع الحضـــارة المصرية والانسانية الاولى .. كما تؤكدها بعد ذلك وقائع عصور السيطرة الرومانية والاغريقية » .

فكيف يمكن القول بعزلة مصر ؛ ان مصر كما يقول الدكتور حسين مؤنس استمرت تحمل مسئوليتها عن حضـــارة البحر الابيض المتوسط حتى الفتح العربى وفترة طويلة خلاله ، ولكن ذلك الاهتمام بالبحر لم يلبث أن تضاءل لان العرب حرصوا على أن يقطعوا صـــلات مصر بالبحر وما يليه ، قطعا لكل أمل للروم فى العودة الى مصر ، وتأمينا لهـــا من أخطار الغزو من وراء البحر . وشيئا فشيئا اقفل هذا الباب ، وانقطعت علاقات مصر بالبحر وفقدت الاسكندرية أهميتها ، وتحولت الى قرية على البحر . أجل هذا البلد الذى كان درة البحر الابيض والذى وجده العرب لدى دخولهم عجيبة من عجائب الزمان : بيوته من المرمر وقصوره من الفضة والذهب كما يقولون . هذا البلد الذى هو رئة مصر التى تتنفس بها ، لم يعد له فى تاريخ البحر الابيض مكانة تذكر ...

وكان هذا الفصل بين مصر وعالم البحر الابيض نذيرا بالنكبات . فلم نعد نعلم مما يجرى وراءه شيئا . وقد فوجئنا بذلك أول نزول الصليبيين . « ثم » فاجأنا الفرنسيون عندما نزلوا بلادنا فى صيف ١٧٩٨ . وكان هـــذا ايذانا بعصر الاستعمار الطويل الذى لم نخلص منه الا بالامس القريب (١) .

ذلك هو الأمر الذى استبطنه عبد الناصر لشخصية مصر حين قال : « منذ زمان بعيد فى المـــاضى ، لم تكن هناك سدود بين بلاد المنطقة التى تعيش فيها الامة العربية الآن » .

---

(١) د. حسين مؤنس : مصر ورسالتها .

« وكانت تيارات التاريخ التى تهب عليها واحـــدة ، كما كانت مساهمتها الايجابية فى التأثير على هذا التاريخ مشتركة » .. نفس الصورة تماما التى اكدها جوستاف لوبون لشخصية مصر « مصر الفرعونية حية فى مصر العربية باقية فى مصرنا الحاضرة » .

وهكذا نرى فى استقراء عبد الناصر ولوبون للشخصية المصرية حس الفيلسوف الاجتماعى الذى لا ينظر لظواهر التاريخ نظرة تجريدية ، وانما ينظر دائما من خلال الاستبطان النفسى لعلاقات الشعوب فى ماضيها .

شخصية مصر شخصية مســـتمرة على مـــدى التاريخ ، فمصر المكتملة المتحضرة كانت منذ خمسة آلاف سنة وما زالت هى بعينها اليوم ، فهى كما يقول الدكتور مؤنس لم يتغير فيها الدين طوال هذه الأحقاب الا مرتين ، ولم تتغير فيها اللغـــة الا مرتين أيضا ، على حين أن بريطانيا مثلا لا يرجع تاريخها الى أبعد من الفى سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغة اربع مرات على الاقل ، وأسبانيا يرجع تاريخها الى الفين وخمسمائة سنة لكن الدين تغير خلالها ثمانى مرات واللغة ست مرات . أما جنسنا فلم يتغير فى جملته خلال هذه الاعصر الا تغيرات طفيفة فى حين أن بلدا كايطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييرا تاما أكثر من مرة .

ويمكننا أن نقول انه اذا كانت لوحدة الشـــعور قوة فى تكوين واستمرار الشخصية المصرية ، فان للأصالة الدينية فى الشعب المصرى ـــ كما يقول الدكتور النجار ـــ من القوة والاثر فى تكوين شخصيته بالوحدة الشعورية من أثر ، ذلك أن المصريين كما يقول هيرودوت « أكثر شعوب العالم تدينا » وكما يقول هيرودوت كذلك « ان المصريين يخافون الخالق أكثر من أى شعب آخر » .لذلك كانت اعمالهم الدنيوية تنطوى على خشية الاله والأمل فى ثوابه ، واتصلت قواعد الاخلاق والسلوك لديهم بتعاليم الدين ووصاياه أتصالا وثيقا ، فكل ما وصل الينا كما يقول الدكتور سليم حسن ـــ من النقوش والكتابات المصرية القديمة يكاد يكون معظمه دينيا أو له علاقة بالشـــعائر الدينية . ولا غرابة فى ذلك كما يقول ـــ اذ ان مابقى لنا من تراث القوم قد عثر عليه فى المقابر والمعابد لغرض دينى ، ولذلك لا نكون مغالين اذا قررنا هنا أن كل كتابة أو نقش عثر عليه حتى الآن ، ولو كان فى ظاهره خاصا بالتاريخ أو الطب أو الاجتماع وضع فى الأصل لقصد دينى أو له مساس بالدين .

فالشعور الدينى اذن ـــ كما يقول الدكتور النجار ـــ كان أعظم مقوم لشخصية المصريين ، وهو خير تفسير لاقبال المصريين على اعتناق الديانات السماوية . المسيحية ، ثم الاســـلام ، ففكرة الوحدانية التى تقوم عليها ديانات السماء

كانت كما يقول الاستاذ « رويدر » لب الديانة الفرعونية ، ولم تكن فكرة البعث والنشور فى الديانة السماوية غريبة على العقيدة الفرعونية . ذلك أن مصر كما يقول « برستد » فى القرن العاشر قبل الميلاد وقبل أن يخط حرف فى التوراة وصلت الى قمة من احساس الضمير برقابة الله ، وذلك فى حكم أميمنوبى أو نصـــائح أوميمنوبى لابنه . ووقفت العبرية بباب مصر تنقل عنهـــا الحكمة لتضملها كتاب العهد القديم . كما تأثر الزابور بقصة الحكيم المصرى أو النبى المصرى أبور وموقفه من مليكه ذلك الموقف الذى نهجه فيما بعد ناثان مع داود . ومن مصر نبعت حكمة « فتاح حتب » التى تمدنا حكمه كما يقول برستد بأقدم نصوص موجودة فى أدب العالم كله للتعبير عن السلوك المستقيم .

ومن أجل ذلك كله اعتنق المصريون المسيحية ثم الاســـلام من بعـــد ، واحتفظوا بغـــير قليل من تقاليدهم القديمة ، ولكن بقيت ملامح شخصيتهم ومقوماتهم لا تتغير الا بقدر ، وبقيت مصر الفرعونية كما يقول جوستاف لوبون : حية فى مصر المسيحية ومصر الاسلامية .

ومن ثم كانت مصر العرب هى مصر الفرعونية .

يقول جمال عبد الناصر :

(وكان الفتح الاسلامى ضوءا أبرز هذه الحقيقة وأنار معالمها وصنع لها ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحى .

وفى اطار التاريخ الاسلامى . . وعلى هدى من رسالة محمد — صلى الله عليه وســـلم — قام الشعب المصرى بأعظم الادوار دفاعا عن الحضـــارة الانسانية . .) .

ولعل ذلك ما دفع جوستاف لوبون من قبل الى أن يؤكد : أن مصر الفرعونية تعيش فى مصر العربية ، ذلك أن مصر العربية حافظت على تراثها الفرعونى ، فبقيت العادات والتقاليد والمأثورات لم تتغير فى مظهرها ، فان هذا التغير لم يتناول جوهرها وأصولها .

وعلى هدى هذه العوامل يمكننا أن نفهم بقاء مصر الفرعونية على مراحل التاريخ والعصور فى كل زمان ، وهو الامر الذى استقرأه عبد الناصر بحثا عن ملامح الشخصية المصرية عبر نضالها التاريخى الطويل ، ذلك أن « قوة منطق عبد الناصر تكمن فى فهمه للتاريخ » على حد تعبير الكاتب الإنجليزى توم ليتل .

يقول عبد الناصر بقوة منطقه التاريخية :

« وقبل أن ينزل ظلام الغزو العثمانى على المنطقة بأسرها كان شعب مصر قد تحمل ببسالة منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها .

كان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى صد أولى موجات الاستعمار الاوربى التى جاءت متسترة وراء صلب المسيح وهى أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم .

وكان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى رد غزوات التتار الذين اجتاحوا سهول الشرق واجتازوا جباله حاملين الخراب معهم والدمار .

ثم كان قد تحمل المسئولية الادبية فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة ، وجعل من أزهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا ورجعية باسم الدين ، والدين منها براء .

ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت ـ كما يقول بعض المؤرخين ـ فان الحملة الفرنسية حين جاءت مصر وجدت « الأزهر » يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه الى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت أن الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة .. والذى كان يفرض عليه دون ما مبرر حقيقى تصادما بين الايمان الدينى الاصيل فى هذا الشعب وبين ارادة الحياة التى ترفض الاستبداد » .

ومن هذا المنطق التاريخى أراد جمال عبد الناصر بثورته تصحيح فهم التصور الاسلامى للحياة وللانسان وللمجتمع بعد أن أحاطت به الشبهات فى كثير من العقول ، ولحقه فساد التأويل وهو فساد كان من نتائجه أحيانا ان إستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم ـ وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية .. كما كان من نتائجه فى أحيان أخرى أن تصور بعض الناس ـ واهمين ـ أن عليهم أن يختاروا بين رفض التقدم باسم دين تصوروا أنه يقف فى وجه الحياة .. وبين حياة تدار شئونها بعيدا عن الدين وتوجيهاته فخسروا وخسر الناس معهم على الحالين » كما أراد عبد الناصر ربط الشخصية المصرية المعاصرة بمصدر التقويم وميزان السلوك واساس التغيير الاجتماعى المستمد من تراثه وعقيدته وايجاد نوع من التنمية الروحية والخلقية الى جوار التنمية الاجتماعية والاقتصادية . كما اكد جمال عبد الناصر خاصة أساسية من الخصائص المميزة لعملية التغيير الثورى فى المجتمع المصرى وهى أن ايمانها بأن ضرورة اتباع المنهج العلمى للتغيير

المجتمع لا يجعل منها مذهبا ماديا ، وانما هى « تؤمن بالله وبرسالته وبالقيم الدينية والخلقية » .

وكان من عوامل الضعف التى حاولت الخلافة العثمانية فرضها رجعية واستعمارا باسم الدين محاولة محو معالم الشخصية المصرية ، وتذويبها فى الشخصية العثمانية الرجعية باسم « الجامعة الاسلامية » ومن جهة اخرى كان هناك الاستعمار الانجليزى الذى يحاول على حد تعبير لطفى السيد « محاولته الذاتية لجعل الجنسية المصرية جنسية دولية » .

وفى ذلك كله ما يفسر تلك الثورات التى كانت تهب على مدى التاريخ المصرى فكانت ثورة عرابى كما يقول عبد الناصر « هى قمة رد الفعل الثورى ضد النكسة » .

« وكان الاحتلال البريطانى العسكرى لمصر سنة ١٨٨٢ ضمانا لمصالح الاحتكارات المالية الاجنبية ، وتأييدا لسلطة الخديو ضد الشعب ، هو التعبير عن ارادة الاستعمار فى استمرار النكسة ومواصلة القهر والاستغلال ضد شعب مصر .

« ان وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة هذا الارهاب المتحكم الذى تسنده قوى الاحتلال الاجنبى والمصالح الدولية الاستعمارية .

« ان أصداء المدافع التى ضربت الاسكندرية وأصداء القتال الباسل الذى طعن من الخلف من التل الكبير لم تكد تخفت حتى انطلقت اصوات جديدة تعبر عن ارادة الحياة التى لا تموت لهذا الشعب الباسل ، وعن حركة اليقظة التى لم تقهرها المصائب والمصاعب .

« لقد سكت أحمد عرابى ، لكن صوت مصطفى كامل بدأ يجلجل فى آفاق مصر .

« ومن عجب أن هذه الفترة التى ظن فيها الاستعمار والمتعاونون معه ، انها فترة الخمود ، كانت من أخصب الفترات فى تاريخ مصر بحثا فى أعماق النفس وتجميعا لطاقات الانطلاق من جديد » .

« لقد ارتفع صوت محمد عبده فى هذه الفترة ينادى بالاصلاح الدينى .
« وارتفع صوت لطفى السيد ينادى بأن تكون مصر للمصريين ..
وارتفع صوت قاسم أمين ينادى بتحرير المرأة » .

يقول الاستاذ اسماعيل مظهر عن تلك الفترة التى « ارتمت فيها السياسة المصرية فى أحضـــان فرنسا وتركيا تستنجد الاولى وتستعديها على انجلترا مستغلة ما بينهما من حزازات ومنافسة وتتعلق بخيط العنكبوت من علاقتنا بالعثمانيين مستغلين سيادتهم الاسمية على مصر نادى لطفى السيد بالاستقلال محققا بذلك الفكرة الوطنية الصحيحة التى قامت عليها الحركة العرابية . وانى لاذكر أن أســـتاذنا ذكر فى مقـــال له أن مصر تطلب الاستقلال التام ، فاستعدى عليه السيد على يوسف المؤيد ورئيس حـــزب الاصلاح ــ وهو اذ ذاك حزب السراى ــ النيابة لتجـــره الى موقف الاتهام . ذلك بأن الاستقلال التام فى ذلك العصر كان جريمة تستحق الجزاء » .

ولكن ابناء مصر الحقيقيين فى هذه الفترة الخصبة فى تاريخ مصر كما يقول عبد الناصر بحثوا فى اعماق الشخصية المصرية تجميعا لطاقات الانطلاق من جديد ، فكان لطفى الســـيد يكتب فى « الجريدة » : « ان أول معنى للقوميه المصرية هو تحديد الوطنية المصرية (نريد الوطن المصرى) والاحتفاظ بهـــا والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه ، والانكليزى على قوميته ــ لا أن نجعل انفسنا وبلادنا على المشـــاع وسط ما يسمى « بالجامعة الاسلامية » تلك الجامعة التى يوسع بعضهم معناها فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم .

« اما لو كان معنى الجامعة قاصرا على وجود ائتلاف بين امة وجارتها على المعاونة المتبادلة على الارتقاء فذلك حسن مفهوم ، بشرط أن يكون العقد متبادل المنفعة لا قاصرها على أحد الطرفين دون الآخر ، اعنى أن يكون أحدهما خادما دائما ويكون الثانى مخدوما دائما .

« ويجب الا نقع فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يراود ادمغتنا الوقت بعد الوقت اذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا ، ومرة أن الدولة العلية ستقوى ، ويحقنا عليها تسفك دماء أبطالها لتخرج الانكليز من بلادنا . ثم بعد ذلك تتركنا لأنفسنا أحرارا ــ نتصرف كما نشاء » .

« ان من الواجب علينا أن نبعد بالامة عن هذه الخيالات الكاذبة ، ونوجهها الى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال .. الخ » . وأما مزاعم كرومر بتدويل الجنسية المصرية فقد دحضـــها لطفى السيد ، فقال ردا على الآخـــذين من المصريين بهذه الفكرة :

« ولكن كثيرا منهم لا يقيم وزنا للقومية المصرية فى تربية الشعور المصرى يقول أن مصر ليست وطنـــا للمصريين فقط بل هى وطن لكل مســـلم يحل فى أرضها ، سواء أكان عثمانيا أم فرنسيا أم انكليزيا أم صينيا أم يابانيا .

وعلى ذلك تكون القومية المصرية أو الجنسية المصرية منعدمة . ومتى انعدمت القومية كيف يفهم الاستقلال ؟ وأدنى مراتب الاستقلال الاختصاص بالحقوق الوطنية في مسطح من الارض محدود بحدود جغرافية معينة، الا ان تقولوا معنى ان صاحب هذا الرأى يريد الغرض ولا يريد المقدمة ، يطلب الاستقلال ويهيىء شهود الامة الى نقيضه . أو ليس هذا المذهب يجر حتما الى القول بأن الاستقلال هو غير الاستقلال ؟ أو أن استقلال المصريين بمصر معناه ملكية مصر على الشيوع لجميع مسلمى الكرة الارضية » ؟

وكانت جهود أبناء مصر فى تلك الحقبة مجتمعة ذات أثر فى تحريك نفوس المصريين شعورا كاملا بالشخصية المصرية ، كما غذت فيهم هذا الشعور الكامل بالقومية ، ووصلته بتلك القرون الموغلة فى صميم التاريخ .

« وكانت تلك كلها — كما يقول عبد الناصر — مقدمة موجة ثورية جديدة ما لبثت أن تفجرت سنة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وبعد خيبة الأمل فى الوعود البراقة التى قطعها الحلفاء على أنفسهم خلال الحرب ، وفى مقدمتها وعود ويلسون التى ما لبث هو نفسه أن تنكر لها واعترف بالحماية البريطانية على مصر » .

فلم تمض أشهر قليلة بعد اعلان الحماية حتى كانت السلطات الانجليزية — كما يقول العقاد (١) قد نقضت كل ما عاهدت عليه الامة المصرية ، فأطلقت أيديها فى دواوين الحكومة جميعا الا ما هى فى غنى عنه ولا قدرة لها على ادارته لقلة الموظفين الانجليز فى تلك الفترة وامعنت من جهة فى التضييق على أعداء الاحتلال واسترسلت من جهة أخرى فى الثقة بمن يوالونه ويخدمونه ، وهم قوم لا خلاق لهم ، ولا ترجى منهم عفة ولا كرامة ، فأساءوا السيرة ، وانبسطت أيديهم بالانتقام ممن يجرؤون على الشكاية ، ثم احتاجت الى العمال فجمعت منهم نحو مليون ومائتى ألف من الفتيان الاشداء فرقتهم فى ميادين القتال وأهملتهم أسوأ اهمال ، فكانوا يتساقطون كالذباب وتنقطع أخبارهم عن أهليهم فلا يسمع عنهم خبر بمرض أو وفاة ، واحتاجت الى الزاد والعلف والماشية والدواب فأخذت منها ما شاءت أن تأخذ ، بلا اكتراث لحاجة الفلاح الفقير الذى يعتمد عليها فى الزرع والمؤونة ، ولبث الرؤساء الانجليز يدفعون الموظفين الى جمع العمال والارزاق ثم يكافئونهم بالترقية والحظوة على ما جمعوا منهم ومنها ، وكانوا يرسلون اليهم المفتشين الانجليز يستحثونهم فى الأقاليم ، ويتهمون منهم المقصرين ، والمتباطئين بسوء النية وقلة الاخلاص

---

(١) العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية .

للحكومة القائمة ، ومن كان من أهل البلاد موسرا ، أو مشـــهورا بالثراء ، فرضوا عليه اعانة قسرية للصليب الاحمر أو يظل عرضة للكيد وتعطيل المرافق عند الحكومة ، وأيسر ما يخشــــاه فى ذلك الحين أن يعتقل زمنا طويلا بلا محاسبة أو سؤال » .

وتفجرت الثورة الشعبية فى سنة ١٩١٩ ، احتجاجا على هذه المحاولات لمحو الشخصية المصرية « وركب سعد زغلول قمة الموجة الثورية الجديدة يقود النضال الشـــعبى العنيد الذى وجهت اليه الضربات المتلاحقة أكثر من مائة عام متواصلة ان يستسلم أو ينهزم » .

ويرى جمال عبد الناصر أن من الاسباب الثلاثة التى أدت الى فشل ثورة ١٩١٩ ، أن القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ، ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أن الوطنية المصرية تعنى الانغلاق والعزلة عن الوطن العربى .

« لقد فشلت هـــذه القيادات فى أن تتعلم من التاريخ وفشـــلت أيضـــا فى ان تتعلم من عدوها الذى تحاربه الذى كان يعامل الامة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقا لمخطط واحد . ومن هنا فان قيادات الثورة لم تتنبه الى خطورة (وعد بلفور) الذى أنشأ اسرائيل لتكون فاصلا يمزق امتداد الارض العربية وقاعدة لتهديدهـــا .

« وبهذا الفشل فان النضال العربى ، فى ساعة من أخطر ساعات الازمة ، حرم من الطاقة الثورية المصرية ، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الاوصال مفتتة الجهد » .

ويتحدث عبد الناصر (١) عن أصالة الشعب المصرى الذى « واجه الاحتلال البريطانى باصرار ، وتمكن بالمقاومة العنيدة من ارغامه على الجلاء فى يونيو سنة ١٩٥٦ ، ليعود الى ملاقاته غازيا فى أكتوبر من نفس الســـنة ، ويهزمه بالسلاح على ضفاف نفس القنـــاة التى كانت قاعدة له .. ويفرض عليـــه التراجع مدحورا مهزوما » ..

« يطرده مرتين من فوق أرضه فى نفس السنة » .

« مرة بالمقاومة السلبية ، ومرة ثانية بايجابية الحرب الشاملة.ويدرك الشعب ان الوجود الاستعمارى على أرضـــه ، ليس هو مجرد القـــواعد

(١) خطاب عبد الناصر فى ٢٦ مارس ١٩٦٤ [يوم افتتاح مجلس الامة] .

العسكرية الظاهرة .. وانما القواعد الخفية أخطر وأضر ، فاذا هو بين الحربين ، حرب المقاومة السلبية التى انتهت بالجلاء وحرب لنصر الكامل ، يؤمم شركة قناة السويس .. ركيزة الاستعمار الراسمالى الاحتكارى ويؤكد سيادته عليها ملكية وادارة وانتفاعا » .

« وبينما نار المعركة مازالت تشتعل على الشواطىء المعرضة للغــزو اذا ارادة الثورة الشعبية تصفى بقية قواعد الاستعمار الراسمالى الاحتكارى فى الداخل ، وتقوم بتمصير جميع المصالح المملوكة لدول الاســتعمار وفى مقدمتها الجزء الاكبر من البنوك وشركات التأمين وشركات التجارة الخارجية، وكلها اعصاب الاقتصاد الحساسة المسيطرة » .

« وفوق ذلك يدرك الشعب فى نفس المرحلة أهمية وحدة الحركة المعادية للاستعمار ، ويرى ضرورة خلق جبهة للحرية عريضة .. فاذا ارادته الثورية من أكثر القوى فاعلية فى انجاح مؤتمر باندونج الذى كان ـــ عدا أهميتـــه فى تاريخ التضامن الأسيوى الافريقى ـــ أعلى نداء جماعى ارتفع بمقاومة الاستعمار والتصدى له » .

تلك هى الابعاد الحقيقية للشخصية المصرية كما رآها جمال عبد الناصر ، الشخصية المحاربة بقدر ما كانت شخصية بناءة ، على عكس ما كان يروج اليونان فى العالم القديم ، ذلك انهم ـــ كما يقول الاستاذ العقاد ـــ كانوا ينقمون على المصريين الترفع والشمم واعتبارهم الاغريق جميعا فى الحضيض الادنى من مراتب الشعوب ، وكانوا يشعرون بنفور المصريين منهم لانهـــم اعانوا الفراعنة الغاصبين عليهم ، ودخلوا زرافات زرافات فى الجيوش المرتزقة التى كان اولئك الفراعنة يستعينون بها على حراســـة عروشهم واخضاع رعاياهم وكان اليونان يزعمون بطبيعة الحال ان الفراعنة يتخذون الجيوش المرتزقة من الاجانب ومن اليونان خاصة لان أبناء البلاد لا يصلحون للحرب ولا يصبرون على مضانك الجندية ؛ أما الحقيقة ـــ كما يقول الاستاذ العقاد ـــ فهى أن الفراعنة الغاصبين علموا بغض الرعية لهم وتربصها بهم وتحفزها للثورة عليهم فخافوا أن يسلموا زمام القوة العســكرية الى تلك الرعية ، واصطنعوا الجند الاجانب ليتقوا بهم خطر الثورة وبوادر الفتنة ، وبلغ الخوف بهم أشده فى عصر الغزوة الفارسية فأكثروا من جند اليونان وأقلوا من التعويل على جند البلاد ، وقد عرض العقاد لذلك فى رسالته عن « رواية قمبيز التمثيلية » فقال : ان اليونان مغرضون اذ يتكلمون عن الجند الوطنيين « ولقد كان ضلعهم ظاهرا مع الملوك الفراعنـــة المكروهين الذين كانوا يحذرون التعويل على الجنود الوطنيين فيكثرون من اســتخدام

الجنود اليونانيين ، وكان أولئك الفراعنة يحاربون اليونان ويتبرعون بالمال الكثير لتعمير هياكلهم فى بلادهم واقامة الهياكل لهم فى جوار المعابد المصرية ، وكان ابناء البلاد يمقتون فراعنتهم من جراء هذا ويتربصون بهم وبالجنود الدخيلة الدوائر ، وينعتون هؤلاء بأقبح النعوت ويحرمون الاكل من أيديهم والتنزل الى معاشرتهم ، ويقدحون فى شجاعتهم وأمانتهم بكل لسان .. على ان استخدام المرتزقة خطة لم تنفرد بها مصر أيام الغزوة الفارسية ، لانهم كانوا يستخدمون فى جيش فارس وساموس فى هذه الفترة بعينها ، فليس من الانصاف أن يتخذ وجودهم فى الجيش المصرى برهانا على نقص فى كفاءة المصريين للجندية والقتال .

وكل ما افتراه مؤرخو اليونان على شجاعة المصريين فى ذلك العهد انما كان حديثا موتورا ودفاعا دخيلا ممقوتا ، وما كان هذا ليخفى على أحد له بصيرة وفطنةوله المام بمواقع‌الاغراض والدعايات . ويسوق‌لنا العقاد بعض الدلائل التي حفل بها التاريخ حتى فى رواية أولئك المؤرخين المغرضين :

« فمنها ان الفرقة المصرية هزمت الفرق المرتزقة فى كل مرة اجتمعت فيها تلك الفرقة الى فرد راية فلما خطر لـ « وهاب رع » أن يشد أزر « ذكران » الزعيم اللوبى فى حربه للمستعمرة الاغريقية ببرقة — رأى من الحكمة أن لا يرسل فى هذه الغزوة جنود المرتزقة مخافة ان يتمردوا ولا تطيب نفوسهم لنصرة ذكران وهزيمة اخوانهم الاغريق ، وعلم ان الفرقة المصرية تبغض الاغريق وتصدق فى قتالهم فأرسلها الى الحدود . ولكن حسابه ما لبث أن التوى فكرت الفرقة المصرية راجعة الى حربه حين احست اجتماع الكلمة ووحدة القيادة ، فجزع « وهاب رع » واستعان بجميع جنوده الاغريق وخرج بهم لقتال الثائرين فهزمه هؤلاء شر هزيمة ورفعوا قائدهم « أحمس » الى العرش شريكا لذلك الفرعون ، ولولا أن علو « أحمس » على زملائه قد آثار فى نفوسهم حسد الند للند فخاف اجتماع كلمتهم عليه لما عدل بعد ذلك عن تأييد الجنود الوطنيين الى مشايعة الاجانب والمرتزقين .

هذا ما حدث فى الواقعة الاولى بين المصريين والاغريق ، فلما التقى الفريقان بعد ذلك مرتين كان الغلب الحاسم فى المرتين للمصريين .

.... وادل مما تقدم على منعة مصر وهيبة جيشها أن كورش مؤسس دولة الفرس وفاتح الامصار شرقا وغربا قد تهيب أن يقدم على غزوها فتركها وشأنها كما قال مسيو « جستاف جكفيه فى كتابه تاريخ الحضارة المصرية .. مع ان كورش كان يعلم اشتراكها فى الحلف الذى تألب عليه مع البابليين والليبيين والسبرطيين والمصريين ، فحارب بابل وليدية وسوف فى محاربة مصر الى أن مات .

.... ومن الدلائل على كذب الاقاويل على هذه الفترة أن قمبيز — مع تهجمه وفتوته — لم يجسر على غزو مصر الا بعد أن استوثق من خيانة فانيس اليونانى واطلع منه على أسرار الهجوم وفوض اليه رشوة البدو الضاربين فى صحراء سيناء ، ثم لم يكفه هذا حتى ألب الاسيويين على المصريين وأعد لهم ستة أضعاف قوتهم من الفرسان ، وجيش مشاة يفوق جيشهم بعدد غير قليل . وأسلحة لا عهد لهم بها فى ذلك الزمان ، وأسطولا لبو لكرات الطاغية الساموسى مال الى فارس بعد أن كان فى حلف المصريين .

.... ولقد غلبت مصر وملكها الفرس وما انكسرت قلوب أهلها ولا خنعت رقابهم لغير الفاتح القوى المعتز ببأسه وسلطانه ، فما برحوا يتحينون الفرص ويثبون على غالبيهم مرة بعد مرة حتى قلق « دارا » الاول وحضر الى مصر وقتل « اريانْد » والى الفرس الذى كان يتغطرس على المصريين ويستنفرهم الى الغضب ، والثورة ، وبالغ فى تملق الشعب والكهان حتى بنى معبدا لآمون واشترك فى موكب الحزن على العجل « هابى » واكتتب بما يعادل اثنين وثلاثة وعشرين ألف جنيه من نقود هذه الايام ، مكافأة لمن يعثر بعجل جديد تجتمع فيه الشروط المفروضة فى أسفار الكهان .

وظهر شمم الكهان المصريين على أتمه يوم اقترح « دارا » عليهم أن يقيموا تمثاله الى جانب تمثال «رعمسو الثانى» فى معبد فتاح ، فلم يبال أحدهم أن يجبهه بتفضيل رعمسو عليه وأن يقول فى غير موارية ولا دهان : انك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تبل مثل بلائه ، فتلقى الجواب كاظما وقال له فى حلم واناة : سأفعل كما فعل اذا عشت كما عاش ، وعدل عن اقامة التمثال اذعانا لكبرياء رعاياه المغلوبين .

« ثم استرجعت مصر استقلالها وكافحت حوله كفاح المستميت . فالحوادث التى انتقلت الينا من مؤرخى اليونان أنفسهم تنفى ما تخلل رواياتهم من سوء الشهادة للشجاعة المصرية وسائر الخلائق الكريمة ، ويجب على المؤرخ المصرى أن يفطن لهذا ولا يجارى الاحاديث المشآعة التى لن تخلو من الهوى ولن ترتكز الى سند صحيح » .

ويضيف الاستاذ العقاد . خلافا لما يقال عن ضعف الطبيعة الحربية فى المصريين انه رأى ضابطا يابانيا يشهد لهم بأنهم أمة مقاتلين ، ويقول بعد أن قضى شهرا فى بور سعيد عقب الحرب العظمى : « ووافق ذلك ابتداء الجد

فى حركة الاستقلال فسنحت لى فرص شتى للتحدث الى المصريين والعرب والاصغاء الى آرائهم وعقائدهم . وعجبت لما وجدته بينهم من فرط الشغف بالاستقلال وحسن المـودة لنا نحن اليابانيين باعتبارنا اخـوانا شرقيين . والمصريون أمة مقاتلة كالعرب يبدو عليهم الاقدام والجسارة ، واذا حسنت القيادة نشأ منهم جيش حسن » (١) .

وهذا لا يعنى أن الشخصية المصرية المحاربة تتوثب الى الحرب لانها باب الرزق وطريق السلامة من الجار المعتدى أو الجار المخيف ، ولكنها شخصية حضارة مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ الى الحروب حين تلجأ اليها لانها ضرورة لا محيص عنها ونكبة لا تستهين بها الا اتقاء لنكبة أكبر منها ، وأصعب عاقبة من عاقبتها . أو هى كما يقول الأستاذ العقاد : لا تطيع حكامها كما يطيع البدوى زعيمه أو كما يطيع العسكرى قائده : الى الحرب يا رجـال فاذا الرجال كلهم على أهبة القتال !

تلك هى الابعاد الحقيقية للشـخصية المصرية ، وهى التى قال عنهـا عبد الناصر فى العصور الحديثة :

« ان الشعب المصرى بدأ يتأهب لاستئناف دوره التاريخى حتى قبل أن تنتهى الحرب العالمية الثانية ، وقبل أن تنزاح الاشباح الكئيبة لدبابات الاحتلال عن مدنه الكبرى .

ولقد عبر الشعب المصرى عن نفسه ، برفضه العنيـد أن يشترك فى الحرب ، التى لم تكن فى نظره الا صراعا على المستعمرات والاسواق بين العنصرية النازية وبين الاستعمار لفرنسى الذى جر على البشرية كلها ويلات لا حدود لها من القتل بالجملة والدمار الشامل .

« لقد رفض الشعب المصرى كل الشعارات التى رفعها المتحاربون اعلاما فوق رؤسهم ليخدعوا بها الشعب .

« وسحب الشعب المصرى كله البقايا الباقية من تأييده للذين تعاونوا مع سلطة الاحتلال طمعا فى مكاسب السوق السوداء التى فرضتها الحـرب وظلالها القاتمـة .

« وعمت الشباب المصرى موجة من السـخط والغضب على كل الذين مدوا أيديهم للاحتلال وقبلوا وجوده ، ولقد ترددت فى مصر فى ذلك الوقت

(١) العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية .

أصداء طلقات الرصاص ، وتجاوبت أصداء انفجارات القنابل ، وكثرت التنظيمات السرية ، بمختلف اتجاهاتها وأساليبها » .

« ان غضب الشعب المصرى الممهد للتغيير بدأ يجاوز النطاق الفردى الى النطاق الجماعى » .

« ان ثورات الفلاحين ضد استبداد الاقطاع وصلت الى حد الاشتباك المسلح بين الذين ثاروا على عبودية الأرض وبين سادة الأرض المتحكمين فيها وفى أقدار الذين ارتبطت حياتهم بها منذ أقدم العصور ، وان كانوا منذ اقدم العصور قد حرموا منها » .

« وحريق القاهرة . . مهما يكن وراءه من تدبير المدبرين كان يمكن اطفاؤه ، لكن ثورة السخط الشعبى زادته اشتعالا » .

« ان الفئة المتحكمة فى العاصمة لم تكن تشعر باحتياجات الشعب ، وكانت غارقة فى حياتها المترفة ، لا تشعر بعذاب الجموع أو آلامها » .

« ان شرار الغضب اشعل من الحرائق فى القاهرة اكثر مما اشعلت يد التدمير الخفية التى بدأت عملية الحريق » .

« ان الجماهير فى القرية وفى المدينة كانت قد عبرت بما فيه الكفاية عن ارادتها الحقيقية مع مطلع السنة الحاسمة فى تاريخ مصر سنة ١٩٥٢ .

« ان أعظم ما فى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ان القوات التى خرجت من الجيش لتنفيذها لم تكن هى صانعة الثورة ، وانها كانت أداة شعبية لها».

« لقد كانت المهمة الكبرى للطلائع الثورية التى تحركت فى الجيش تلك الليلة الخالدة ، هى انها استولت على الامور فيه ، واختارت له المكان الذى لا مكان له غيره ، وهو جانب النضال الشعبى » .

« انها قامت بعملية تصحيح للاوضاع بالغة الاهمية والخطر فى تلك الظروف ، متحدية بذلك ارادة كل القوى الحاكمة التى أرادت عزل الجيش عن النضال الشعبى » .

« ان الثورة تفجرت تلك الليلة العظيمة من انضمام الجيش الى مكانه الطبيعى تحت قيادة الشعب وفى خدمة أمانيه » .

« ان الجيش فى تلك الليلة أعلن ولاءه للنضال الشعبى ومن ثم فتح الطريق أمام ارادة التغيير » .

« ان انضمام الجيش الى النضال الشعبى صنع أثرين هائلين فى نفس الليـــلة » .

« لقد سلب قوى الاستغلال الداخلى أداتها التى كانت تهـــدد بها ثورة الشعب كذلك فانه سلح النضال الشعبى فى مواجهة قوى السيطرة الاجنبية المحتلة بدرع من الصلب قادر أن يصد عنه ضربات الخيانة والغدر » .

« ان الثورة لم تحدث ليلة ٢٣ يوليو ، ولكن الطريق اليها قد فتح على مصراعيه تلك الليلة العظيمة » .

« ولقد اثبت الوعى الثورى فى مصر قدرته على تحمل المسئولية الكبرى التى القتها تطورات الظروف عليه » .

« ان الوعى الثورى استمد من حسه الوطنى الصافى قدرة على الرؤية الوضحة البعيدة المدى ، وبذلك أمكن اجتياز العقبـــات التى كان يمكن أن تعترض طريق التغيير الثورى فى مثل ظروف التجربة التى عاشتها مصر تلك الايام » .

تلك هى طبيعة الشخصية المصرية التى تمتعت بعاطفة أشار لها لوبون ، عبرت عنها بغير التعبيرات الفاترة والتعقيد اللفظى ، وصورتها باخـــلاص وتأثر ، الا وهى عاطفة حب الوطن .. حب وادى النيل الذى أسماه المصريون « الارض كلها » كأنه لا دنيا سواه .

وتلك الطبيعة فى الشخصية المصرية مستمدة من طبيعة شخصية مصر التى قيل عنها ((مصر كنانة الله فى أرضه)) ، من أرادها بسوء قصم الله ظهره وتلك طبيعة المقاومة فيها فهى ((مصر المحروسة)) منذ مئات السنين والى أبد الآبدين .

« اننى لم أعط حياتى للحكم ولا السلطة . وبرغم سنوات طويلة من العمل السياسى فلست اعتبر نفسى حتى الآن سياسيا محترفا وأدعو الله ألا أكون كذلك إى يوم من الأيام . وكل ما أتمناه دائما من الله أن أرى طريق الواجب ، وأحفظ الصلة بأحاسيس جماهير هذا الشعب وبوجدانه بدون أى عوائق يضعها الحكم أو السلطة . ذلك أنه بدون الصلة المستمرة باحساس هذا الشعب ووجدانه يصبح الحكم تحكما وتصبح السلطة تسلطا ، وذلك ما أدعو الله أن يقينى منه ويقى منه شعبنا فى نضاله حاضرا ومستقبلا » .

جمال عبد الناصر ــ ١٩٦٨

الفصل الثانى

عبد الناصر والشخصية المصرية

ليس ثمة شك فى أن الشخصية المصرية قد برهنت طوال تاريخها الطويل على القدرة العظيمة على المقاومة والتحمل ، وهى من أجل ذلك احتفظت بكيانها فى جميع العصور التاريخية التى مرت بها ، فشهد التاريخ نفسه لمصر انها كانت تقوى على اذابة الاجناس الاجنبية فيها ، وعلى تحويلها فى وقت قريب جدا الى أجناس تكسب لنفسها صفة المصرية ، وتعتز بها ، وربما نسيت معها اصلها الاول .

تتميزت الشخصية المصرية بميلها الطبيعى الى الدين ، فكانت حضارة المصريين فى العصور القديمة والوسطى حضارة دينية فى جملتها ، وفى ذلك ما يفسر سر كونها تربة صالحة للتصوف .

والشخصية المصرية مع شدة ميلها الى القديم ، لا تكره الجديد ، وانما ترحب به وتفسح له المجال وتسمح لهذا الجديد فيبقى ضيفا عليها مدة طويلة ، تدرسه فى غضونها دراسة جديدة ، وتتمثله فى نفسها تمثلا قويا ، وتدخره عندها لوقت الحاجة . والشخصية المصرية اقدر من غيرها على أن تختار لنفسها ما يصلح لها من مواد الثقافة والعلم تحكم فى ذلك حاسة الذوق ، وهى — فى المصريين اقوى واظهر ، وربما كان — نتاجهم الفكرى من أجلها اخف ظلا من غيره . كما أن الشخصية المصرية كانت وربما لم تزل — تؤثر السهولة ، والبساطة والوضوح على التقليد والغرابة والالتواء، وكان لهذه الطبيعة اثرها الواضح فى تفكيرها وآدابها . والشخصية المصرية اذن بقيت متماسكة قوية تتمتع بوحدة وانسجام قويين ، فلم تصبها المحن والهزات ذلك انها نبت هذه الارض الطيبة التى أورثتها صفاتها وسماتها .

تلك هى الشخصية المصرية فى طبيعتها التى حاولت عصور الظلام أن تطمسها ، وتواريها تراب الارض الطيبة ، التى احتفظت بها نقية رغم عوامل الظلمة الشديدة الكثافة فى تاريخ مصر منذ الاحتلال العثمانى ، وذلك لما أحاط بها من أقاويل الامم المنافسة لها أو الموتورة منها على حد تعبير الاستاذ العقاد ، وقد طال عهد مصر بمراسى المنافسين والجيران الموتورين وطال اعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها من انها أمة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبالى غارة الاجنبى عليها ، وقد شاع هذا الاتهام للمصريين

بالخضوع للسيطرة الاجنبية كما يقول العقاد ، ولم يشع كثيرا عن الامم الاخرى لان المصريين أمة لها تاريخ قديم متصـــل بالعالم فى شرقه وغربه وقديمه وحديثه ، فالأخبار عنها متصلة وذاكرة الشعوب بها مشغولة،ولأن العالم القديم والعالم الحديث كليهما قد تلقيا تاريخ هذه الامـــة من أفواه الاعداء والمفرضين ، ولم تحفل هذه الامة بتصحيح ما يقال عنها لان تصحيح التواريخ القومية بدعة جديدة ، لم يعرف لها خطرها ومبلغ الحاجة اليها قبل عصرنا الأخير .

وتكاتفت عوامل التشهير والاســـتعمار على طمس معالم الشـــخصية المصرية ، فالاستعمار الاوربى ينظر الى الشرق نظر المستعمر الطامع الى الغنيمة الميسورة المنال ، فوصفه فى ماضيه وحاضره بالصفة التى يحبهـــا ويتمنى دوامها ، فالاستعمار لا يحب الشرق مستقلا ولا أهلا للاســـتقلال ، وابتلى المصريون الى جانب المنكرين المستعمرين — كما يقول العقاد — بطبقة من الترك أو المتتركين ترفعوا عن « الفلاح المصرى » وحسبوا انفسهم جنسا أكرم وأعظم من جنسه العريق فى المدينة ، فشاعت هذه النزعة بين المترفين وأصحاب المناصب ، وكان لها أثر ليس بالهين ولا بالمحمود فى تربية الامة وعقيدتها القومية (١) .

تلك هى الظلمة التى أحاطت بالشخصية المصرية لطمس جوهرها ومحو معالمها الحقيقية ، ومن أجل ذلك لا نعجب حينما نسمع أن جمال عبد الناصر وهو طفل يجده والده ذات صباح بينما كان خارجا الى مقر عمله يحفـــر الارض بيديه أمام البيت ، وينهاه أبوه عن الحفر ، وعندما يعود الاب من عمله يجد الحفرة الصغيرة قد اتسعت وزادت عمقا .. ويسأل الوالد :

— لقد قلت لك لا تحفر الأرض فلماذا مضيت فىالحفر ؟ ويجيب جمال عبد الناصر وهو يضغط بحاجبيه على جبينه :

— أردت أن أعرف ماذا تخبىء لنا هذه الارض .. كيف تعطينا والى متى تأخذ منا ؟

ذلك هو جمال عبد الناصر يبحث عن شخصيته الحقيقية فى الارض الطيبة بعد أن عجزت كل الاجابات عن اقناعه ، نبت هذه الارض الطيبة خلقـــا وخلقا ، فهو الاسمر الفارع الصلب كجذع صـــفصافة عالية ســـامقة من صفصاف النيل ، ينتمى الى قرية مصرية أصيلة هى « بنى مر » فى صعيد

---

(١) العقاد : سعد زغلول (طبع سنة ١٩٣٦) .

مصر ، موطن الاهل . وهى قريةصغيرة لا تزيد مساحتها على ٢٢٠٠ فدان ، ولا يزيد سكانها على ٥٤٢٥ نسمة .. تقع على الشمال الشرقى لمدينة أسيوط ، على بعد نصف كيلومتر منها .. وتسكن عائلة سلطان التى انحدر عبد الناصر من صلبها فى الحى الشمالى من القرية .. عائلة فقيرة تعيش على فلاحة الارض شأنها شأن العائلات المصرية التى تنتشر على ضفاف الوادى العظيم .

ويقول ولترووين فى كتابه عن جمال عبد الناصر : ان قصة البحث عن الكرامة فى بنى مر وضع الاساس العاطفى الانفعالى لذلك الدافع النفسانى الهائل فى نفس عبد الناصر ، الدافع الى أن يجعل نفسه وبنى قومه فخورين بقوميتهم لا خجلين منها ، ولا غرو أن يقول عبد الناصر فى اعتزاز شديد بقوميته وشخصيته المصرية :

« أنا جمال عبد الناصر أفخر بأن عائلتى لا تزال فى بنى مر مثلكم انتم ، تعمل وتزرع وتقلع من أجل عزة هذا الوطن وحريته .. اننى أفخر دائما بأننى واحد من أهالى بنى مر ، وأفخر ، اكثر من هذا ، بأننى من عائلة فقيرة نشأت فى بنى مر .. وأنا اقول هذا لاسجل أن جمال عبد الناصر نشأ من عائلة فقيرة ، واعاهدكم بأن جمال عبد الناصر سيستمر حتى يموت فقيرا فى هذا الوطن » .

وآثرت الارض الطيبة أن يولد عبد الناصر فى مدينة الاسكندرية فى ١٥ يناير سنة ١٩١٨ ، وأن تشهد قرى مصر خطواته الاولى حيث ينتقل والده من قرية الى اخرى ، وان كان السبب الرئيسى فى تنقل والد عبد الناصر من بلد الى آخر كما يقول جورج فوشيه مؤلف كتاب « عبد الناصر وصحبه » يرجع الى أنه لم يكن لديه واسطة أو نفوذ لدى كبار الموظفين فى مصلحة البريد » .

فتلقى دراسته الاولية فى مدرسة « الخطاطبة » بمحافظة البحيرة ، وحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة النحاسين الابتدائية بمدينة القاهرة . وفى مدرسة راس التين الثانوية بالاسكندرية — بدأ عبد الناصر يناضل الاستعمار الذى يطمس معالم الشخصية الحقيقية لمصر .. يحدثنا عبد الناصر عن هذه الفترة من حياته فيقول :

« مازلت أذكر بوضوح أول صدام لى ضد السلطة .. كان ذلك فى عام ١٩٣٣ وكنت يومئذ تلميذا فى الاسكندرية لم أبلغ الخامسة عشرة من عمرى وكنت أعبر ميدان المنشية فى الاسكندرية حين وجدت اشتباكا بين

مظاهرة لبعض التلاميذ وبين سلطات الاحتلال .. وقد دخلت السجن تلميذا متحمسا وخرجت منه مشحونا بطاقة من الغضب . وقد مضى بعد ذلك زمن طويل قبل أن تتبلور أفكارى ومعتقداتى وخططى ولكن حتى فى هذه اللحظة الباكرة كنت أعلم ان وطنى يخوض صراعا متصـــلا من أجل حريتـــه » . ويعود عبد الناصر الى القاهرة مرة أخرى ليلتحق بمدرسة النهضة الثانوية بعد أن ضاق المسئولون فى مدرسة رأس التين ذرعا بنشاطه ، سيما وانه بعد اشتراكه فى المظاهرة السياسية الاولى دخل الميدان بكل جوارحه وأصبح رئيسا للجنة تنظيم المقاومة ، ولم يكف عن المظاهرات الساخطة فى شوارع الاسكندرية . ولقد كان ذلك على حد تعبيره « متنفســـا لابد منه لعواطفنا الحادة ولشعورنا بالكبت الذى يضغط على وطننا » .

وفى القاهرة بدأت رحلة الكشف عن الشخصية المصرية ، فرغم اعجـــابه بالمدينة كان يفكر فى القرية التى أعطته ضعف عمره خبرة وتجربة ومنحتـــه اليقظة التى تسمع وتستوعب وتخترق فى أعماقها جميع التجارب ، وكان هناك التفكير فى مستقبل الشخصية المصرية ، وكان وهو يفكر مؤمنا بشخصيته المصرية .. وبأنه لمصر العظيمة .

وكان أهم كشف للشخصية المصرية يتوصل اليه عبد الناصر انهـــا تحب الحياة الامر الذى جعلها نزاعة الى السلام وتنفر من العدوان تقديسا للحياة وابقاء عليها ، وتثور دفاعا عن حق الحياة كلما جد عارض يهددها . وأبلغ تعبير عن تلك النوازع النبيلة المتأصلة فى أعماق الشخصية المصرية هو قول عبد الناصر من بعد : « نسالم من يسالمنا ، ونعادى من يعادينا » .

والسؤال هو متى كان ذلك اليوم الذى اكتشف فيه عبد الناصر بذور الثورة المصرية فى أعماقه ؟

والاجابة كما يقول فى فلسفة الثورة : « لو أضفنا الى هذا كله أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماقى وحدى ؛ وانما وجدتها فى أعماق كثيرين غيرى هم الاخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه، لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا ،وانها كانت أملا مكبوتا خلفه فى وجداننا جيل سبقنا » .

والواقع ان تلك البذور كمنت فى الشخصية المصرية طوال التاريخ فها هى مصر تثور ضد الهكسوس وتقوم بطردهم وتطهر البلاد منهم بعد أن ظلوا يحكمون البلادمنسنة ١٧٨٥ الى ١٦٨٠ قبل الميلاد وتمثلت الزعامة المصرية فى

احمس الذى ثار فى وجوه الهكسوس واستنفر المصريين الذين لبوا نداءه حتى تم طرد المحتل ، وتعقبوا ملوكهم فى الصحراء حتى لحقوا بهم عند حصن « شاروهين » الذى تحصنوا به واضطروهم للجلاء عن الحصن ، وعاد أحمس مرفوع الرأس .

وهاهى مصر تثور مرة ثانية ويتزعم ثورتها « حور محب » الذى حكم مصر من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٢٠٨ قبل الميلاد ، ومجمل هذه الثورة أنه فى أعقاب تغير الدين فى مصر ابان حكم « اخناتون » المسمى بملك التوحيد لم تكن الاحوال مستقرة ، فقد ولى الحكم بعد وفاة « اخناتون » زوج ابنته الكبرى « سمقنن كارع » لمدة وجيزة ثم تلاه الملك الطفل « توت عنخ آمون » الذى حكم مصر ثمانى سنوات ، ثم جاء بعده « آى » الذى لم يكن من بيت الملك ، فثار عليه حورمحب الذى كان قائدا للجيوش ونحاه عن الملك ، ولما استتب له الامر قام بحملات عدة أعادت للبلاد هيبتها التى اضاعها اخناتون .

وكان من أهم ما قام به من أعمال عمرانية مكافحته الانحلال الخلقى الذى عم العهد السابق ، ورد للحكم المصرى هيبته ، اذ كانت الرشوة والابتزاز قد انتشرا فى صورة بشعة ، وضمن اصلاحاته قانونا حازما من أبرز أحكامه :

١ — منع اضهاد الموظفين الماليين والاداريين للفقراء وفرض عقوبات صارمة لاعمال القسوة منها جدع الانف والنفى الى اقصى البلاد على الحدود .

٢ — منع اضطهاد رجال الشرطة المعهود اليهم حفظ النظام .

٣ — اختار الموظفين ذوى السيرة الحسنة ليقوموا بجمع الضرائب ونصب وزيرين ليقيم أحدهما فى الشمال والاخر فى الجنوب يشرفان على هذه العملية وحذرهما قائلا : « لا تأخذا رشوة من أحد والا فكيف تستطيعان أن تحكما بالعدل اذا كنتما جناة على القانون ! » .

وكأنما كان القدر يرسم الخط العميق فى ثورة مصر ، وفى تحول التيار الوطنى عن أسلوب المغالطات الذى أخذت به الزعامة السياسية فى مصر بعد الحرب العالمية الاولى ، ذلك ان عام ١٩٣٦ ، عام توقيع المعاهدة المصرية الانجليزية التى جمدت كفاح مصر ضد الاستعمار البريطانى عشر سنوات كاملة ، أو كما يسميه الدكتور لويس عوض « عام الهدنة الكبرى فهو العام الذى اصطف فيه كل ساسة مصر المعروفين من كل حزب ورأى

وأعلنوا انتهاء « الجهاد الوطنى » الذى كنا نحتفل بعيده فى ١٣ نوفمبر من كل سنة ، وبداية عهد « الصداقة والتحالف » مع الانجليز أعداء البلاد ، وبذلك أعلنوا انتهاء عصر الديمقراطية التقليدية وفلسفتها الليبرالية المجسدة فى دستور ١٩٢٣ وبداية عصر الراديكالية أو اصلاح من الجذور . وقد كانت هذه الفترة العصيبة وما بعدها هى التى فجرت ثورية عبد الناصر وبعض زملائه الذين تحركوا معه فى ٢٣ يوليو وحددت بعض اتجاهاتهم الفكرية . وقد كان قبول الوفد ممثل الديمقراطية الليبرالية توقيع هذه الهـدنة مع الانجليز كقبوله توقيع الهدنة مع العرش بعد سنوات طوال من الكفاح المرير ضد الاستعمار البريطانى ، وضد الملكية الاوتوقراطية هو الاية الحقيقية على أفلاس الديمقراطية الليبرالية فى مصر » .

وتفصيل ذلك أن جمال عبد لناصر كما هو معلوم من سيرته ، بعد أن توفيت والدته ظل فى القاهرة مع عمه السيد خليل حسين الذى ألحقـه بمدرسة النحاسين الابتدائية ، والتى تواجه مقابر سلاطين المماليك المجاورة فى الحسين وخان الخليلى ، ويؤكد لنا جورج فوشيه أن عبد الناصر قد تأثر بجو هذا الحى و « لا شك ان هذا الجو الدينى من مساجد ومشايخ وروائح البخور .. قد أثر فى شخصية الرئيس وتوج ايمانه بالدين وقيمه الروحيـة والاخلاقية ومبادئه النضالية » ..

وكانت هذه البذور الثورية تنمو مع شخصيته منذ طفولته المبكرة ، ذلك أن أحد أصدقائه السيد حسن النشار والذى تنقل معه فى مراحل الطفولة من بلدة الى بلدة يقول ان عبد الناصر كان بالنسبة لنا كزملاء فى المدرسـة وأصدقاء فى الحياة .. يمثل شيئا مبهما .. فهو رائدنا فى كل شىء .. فى الدراسة وفيما بعد الدراسة .. كان أطول قامة منا جميعا .. وكان رزينا يستأنس بالوحدة والتأمل والصمت .. وكان دائم التفكير .. وكان أبعدنا عن الخطأ وارتكاب ما يستوجب المحاسبة ، وكنا عنـدما نختلف حـول موضوع ما يكون رأيه دائما القول الفصل .

وكان عبد الناصر يثير دهشة والديه بخواطره وايماءاته الغريبة .. وذات يوم فى « الخطاطبة » سأل أباه فجأة والاسرة تتناول الطعام ، وقطعة من اللحم فى فم جمال :

— أبى .. لمـاذا نأكل اللحم .. والفلاحون الذين يرعون المـاشية ويربونها لا يأكلونها ؟

وتوقف الوالد عن تناول الطعـــام .. واخذ ينظر الى ابنـــه فى تأمل وصمت » .

تلك هى بذرة الثورة القديمة تنتقل من « حورمحب » الى عبد الناصر .. الفقراء .. الفلاحون الذين يرعون الماشية ولا يأكلونها ، وما أشبه اليـــوم بالبارحة .. الطفل يعيش نفس العصر الملىء بالظلم الاجتماعى والامراض الســـياسية .

ويروى لنا حسن النشار عن اتصال عبد الناصر بالحركة الســـياسية فى القاهرة عام ١٩٣٥ :

« وكانت الشخصية السياسية التى ننتظر منها الأمل فى الخلاص تتمثل فى أحد وزراء ذلك العهد .. وفى ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ فبراير من نفس العام كنا على موعد مع هذا الزعيم .. ولمحناه يخرج من مكتبه وخلفه حاشية من النواب وغيرهم .. ويعترض جمال طريقه وهو يهم بدخول « الاسانسير » ويقول له : احنا كونا مجموعة كبيرة من طلبة المدارس المختلفة .. وعاوزين ناخد رأيك فيما يجب أن نفعله . وكيف يمكننا خدمة البلاد ؟

« وفى هذه اللحظة بالذات احسسنا بشخصية الزعيم تتجسد فى جمـــال عبد الناصر .. شجاع يمتاز بكل صفات القيادة والقدرة على مواجهة الكبار بلا تردد أو خوف . وذكر ان الوزير نصحه بالاتصال بطلبة الجامعـــة .. وذهبنا خلف جمال الى هناك لنجد شباب الاحزاب يتطاحنون .. لا حـــول الكفاح والأمال والامانى .. ولكن حـــول من يكون رئيسا ووكيـــلا وأمينا للاتحاد .. وانفض الاجتماع دون التطرق بكلمة واحدة حول هذه المعانى .. مما دفع جمال عبد الناصر الى تكوين « لجنة المدارس الثانوية وكان يحمل معه كراسة تضم قيادة التنظيم الذى كان يضم كثيرا من الاسماء .. وفى الوقت الذى دعت فيه الاحزاب الى العودة الى الدراسة عقب اعـــلان دســـتور « ١٩٢٣ » كان عبد الناصر يخطب فى فناء مدرسة الحســـينية الثانوية .. التى ضمت الالوف من طلبة المدارس الثانوية . وهاجمنا البوليس وتقرر اغلاق المدارس .. ولكن عبد الناصر لم يهدأ .. فقد ساعدته الكراسة التى دون فيها اسماء وعناوين قيادات الطلبة فى الاتصال بهم ومعاودة تنظيمهم من جديد فى فترة تعطيل الدراسة .

« وفى شـــهر نوفمبر ١٩٣٥ والمكان بمدرسة النهضـــة الثانوية ، بدأت الدراسة منذ شـــهر ، وكان قد مضى عام على وعـــد توفيق نسيم باعادة الدستور ، وكانت المناقشات فى الفصل وفى فناء المدرسة حول أسلوب

المقاومة . ولكن من الذى يستطيع أن يعلن عن قيام المظاهرات . فالسجن أو الفصل مصيره المحتوم .

« وفى اللحظة التى بدأ فيها جمال عبد الناصر ينظم صفوف الطلبة للتظاهر ويأخذون طريقهم الى شوارع القاهرة ، قبض عليه البوليس السياسى وألقى به فى سجن قسم الموسكى لانه هتف بحياة مصر !

ودعا رئيس الحكومة آنذاك الى عودة الطلبة الى مدارسهم معلنا « ان الذين يواصلون تنظيم المظاهرات خونة ! وفى أعقاب هذا التصريح تنشب الصراعات بين أصحاب القمصان السوداء وأصحاب القمصان الخضراء .. وكان عبد الناصر يهب على رأس مجموعات من طلبة المدارس الثانوية .. لنجدة العدد القليل من الطلبة الوطنيين بقيادة نور الدين طراف .

وأخرج البوليس السياسى رئيس اللجنة التنفيذية لطلبة المارس الثانوية . ولكنه لم يكف عن مراقبته ، وحرص ناظر مدرسة النهضة الثانوية على فصله بتهمة تحريض الطلبة على الثورة ! وفى اللحظة التى عرف الطلبة بما حدث لجمال عبد الناصر اتخذوا قرارا بحرق عنابر المدرسة الداخلية ، وبعد ساعة واحدة كانت النيران تندلع من العنابر » .

ويقول عبد الناصر فى فلسفة الثورة :

« فى تلك الايام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقى بطلب الاستقلال التام ولكن صراخنا ضاع هباء .. وبددته أصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور » .

وكان افلاس الديمقراطية الليبرالية فى مصر سنة ١٩٣٦ معلما أساسيا فى تطور الفكر الثورى لعبد الناصر ، فهو لم يعد يأمل فى الطاقم السياسى الذى تخرج من كلية الحقوق « وليس طريق الديمقراطية الليبرالية هو الذى يؤدى الى تحقيق آمال البلاد ورد حريتها وكرامتها ، ولابد من سلك طريق آخر : هو طريق القوة ..

ومن هنا ولهذه الاسباب كان عبد الناصر على اقتناع تام كما يقول جورج فوشيه :

« لقد امتلأت نفس الشاب يقينا بأن مصر لن تحصل على استقلالها بالخطب والمرافعات .. بل يجب أن تقابل القوة بالقوة .. والاحتلال العسكرى بجيش وطنى وقرر أن يكون ضابطا » .

يقول عبد الناصر فى سنة ١٩٥٦ بعد أن تكلل كفاح مصر بانتصارها فى بور سعيد :

« من سنة ٣٠ واحنا كنا بنخرج فى المظاهرات وننادى بالحرية والاستقلال .. كانت الحرية لنا تشمل كل هذه المعانى وكان الاستقلال بالنسبة لنا يشمل كل هذه المعانى وكنا نسير فى كفاحنا وكان ينتكس الكفاح ولكنا كنا نعود مرة أخرى لنكافح من جديد من أجل ان تتحقق هذه الامال » ..

ويبين لنا عبد الناصر كيف كان الاقطاع يسلب الحرية ويسلب الديمقراطية :

« لقد اقام الانجليز بين ربوع امتنا ديمقراطية سنة ٢٣ واقاموا برلمان فى سنة ٢٣ وبنوا برلمان فى سنة ٢٣ وقالوا انهم أنهوا الحماية وقالوا انهم ادونا دستور ٢٣ ولكن فى هذا الدستور كانت هناك مواد تنص على الحرية وكانت هناك مواد تنحل على الديمقراطية وكانت هناك مواد تنص على المساواة .

« هل كانت هناك حرية حقيقية ؟ هل كانت هناك ديمقراطية حقيقية ؟ هل كانت هناك مساواة حقيقية ؟ لقد كتبت هذه المعانى فى الدستور ولكنها فى التنفيذ قد سلبت لأن الاقطاع يسلب الديمقراطية والاقطاع يسلب الحرية . والاقطاع يسلب المساواة ، ازاى الاقطاعى ، يقول الدستور ان الاقطاعى على قدم المساواة مع العامل الاجير أو مع الفلاح الاجير ، هل فعلا كان فيه مساواة بين العامل وبين الاقطاعى ، هل كان فيه مساواة بين البرنسات والامراء اللى كانوا موجودين فى التفاتيش والاقطاعيات والعمال الزراعيين اللى كانوا بيعملوا فى هذه التفاتيش .

« كان هذا كلام فى الدستور كلام بس ولكن العامل كان ملك لصاحب الارض ، العامل الزراعى والفلاح كان ملك لصاحب الارض والاقطاعى كان بيعتبر نفسه مالك للارض ومن عليها ، مالك للارض ومالك للعمال الزراعيين ..

« بهذا انتفت الديمقراطية ، بهذا انتفت الحرية ، بهذا انتفت المساواة ، ولو أن الدستور كتب ديمقراطية وكتب حرية وكتب مساواة على اساس ان هذه الديمقراطية ديمقراطية سياسية وان هذه الحرية حرية سياسية وان هذه المساواة مساواة سياسية

ويضيف عبد الناصر عن ملاحظاته ومعاناته مع الشعب من تكاتف الاستعمار والرجعية ضد هذه الامة .

« ولكن الأوضاع الاجتماعية التى ورثناها قضت كلية على وضع فى الدستور ان الذين ورثوا الارض ورثوا معها من يعملون فى الارض ان الذين ورثوا النفوذ ورثوا الجاه ، ورثوا معها الصحة وورثوا معها الحياة التى ترفرف عليها الرفاهية وتركوا للباقين المرض والذل ، ان الذين ورثوا السلطان ورثوا معه امكانية أن يتصرفوا فى هذه البلاد أما الذين لم يرثوا السلطان فقد ورثوا الشقاء والتعب ورثوا الذل والحرمان ورثوا الذل من أجل الحصول على العمل ومن أجل الحصول على المساواة التى تضمنها الدستور والحصول على الديمقراطية التى تضمنها الدستور والحصول على الحرية التى تضمنها الدستور .

ثم يتحدث عن الاقطاع والاستعمار :

« وكان هذا المجتمع الاقطاعى يتعاون مع الاستعمار من أجل اخضاع أبناء هذه الامة من أجل أن يمكن الاستعمار ، كان الاقطاع يتعاون مع الاستعمار ثم تطورت الامور وقامت الرأسمالية فى الحرب العالمية الاولى تتعاون مع الاستعمار .

« كان الاقطاع أيضا يتعاون مع الاستعمار قبل كده علشان يعملنا مزرعة لبريطانيا تزرع القطن وتصدر القطن لبريطانيا بأبخس الاسعار كان الاقطاع بيجد فى هذا مصلحة ، هل كان فيه مصلحة للشعب ، كان الشعب بيأخذ الفتات ، كان الشعب بيأخذ فى هذا ما يمكنه من أن يقتتات ويعيش ليخدم الاقطاع علشان الاقطاع يخدم بريطانيا ومصالح بريطانيا .

وعن تعاون الاستعمار مع الرأسمالية ، يرسم عبد الناصر ملامح الصورة :

« ثم بعد هذا تطور المجتمع الاقطاعى وأصبح مجمتع اقطاعى رأسمالى والرأسمالية لما بدأت فى بلدنا بدأت وقد تعاونت مع الاستعمار، فى بلدنا هنا تعاونت مع الاستعمار الانجليزى وفى البلاد الاخرى المحيطة بنا تعاونت مع الاستعمار الفرنسى ، فأعوان الاستعمار وجدوا فرصة انهم يتحولوا الى رأسمالية صناعية ، أو تجار وعملوا الاموال وكانوا يجدوا دائما ان عمل الاموال يستدعى بقاء الاستعمار فى هذه البلاد ثم ساروا بعد هذا ودخلوا فى السياسة لان السياسة تمكن لهم من انهم يسيطروا على الحكم وسيطرتهم على الحكم تمكنهم من أنهم يأخذوا أموال كثر وكان هناك الفساد وكان

هناك الاحتكار وكانت هناك سيطرة رأس المال وكانت هنـــاك ديكتاتورية الاقطاع وكان هناك ديكتاتورية رأس المال .

« ثم كانت هناك الملكية الفاسدة التى تعمل على أن تأخذ خيرات هــذه البلاد لانفسها كان الملك وكان الامراء بيلموا ايضا أموال من العزب ومن التفاتيش ومن السمسرة ومن النسب المئوية ، اللى كان بيأخذ خمسة فى المـــاية واللى بياخد ثمانية فى المـــاية علشان يعملوا أرباح معينة .

« ده الكلام اللى كان موجود فى الماضى .. وكان تحالف وتعاون وتآزر بين الاستعمار والاقطاع والرأسمالية الفاسدة المستغلة والاحتكار وكنا جميعا نريد أن نقضى على هذا » .

من أجل ذلك كله ، رغم انه كان يتوق الى دراسة الحقوق ، قرر عبد الناصر أن يكون ضابطا ، وهذا يعنى الكثير بالنسبة لشخصية الشاب الذى كان قد فهم أن تحرير مصر لا يتم عن طريق « القضية المصرية » ، كما كان يطلق عليها المحامون الذين اتيح لهم أن يصبحوا زعماء مصر من تلاميذ المدارس الحربية » .

ولم يعد هناك أمل فى هذا الطاقم السياسى الذى تخرج من كلية الحقوق ، وليس هذا هو الطريق الذى يؤدى الى تحقيق آمال البـــلاد ورد حريتهـــا وكرامتها . ولابد من سلك طريق الثورة .

لقد اقتنع عبد الناصر بأن العلم أهم سلاح ضد الاجنبى ، وأن مقابلة الرصاص الانجليزى لا يكون بالمظاهرات ، ولكن بالحرب ودراسة فنونها .. وكانت السير التى قرأها للابطال والزعماء قد رسمت له صورة « البطل » فى صورة المحارب الفاتح الذى يحرر وطنه ، ويسوق المحتلين مورد الهلاك. وزاده يقينا بهذا الاتجاه وتأكيدا له قراءته لتاريخ أحمد عرابى : فان لعرابى عند مصر ثأرا ، وله فى عنق الجيش المصرى وديعة ..

يقول عبد الناصر :

« ده كان المجتمع القديم اللى احنا وجدنا فيه .. قامت ثورات كثيرة .. قامت ثورة فى زمن الخديوى توفيق لما قام عرابى ، قام عرابى ، وقال لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا ، ونحن لم نورث ولن نورث أبدا لاى فرد ولو كان الخديوى توفيق .. خدوه الانجليز وجم نفوه ولكن هل قدروا بعد أن نفوا عرابى وزملاء عرابى انهم يقضوا على الحرية فى هذه البلد ؟ .. ابدا بدليل ان احنا النهاردة أحرار والبلد بتاعتنا .. وإن احنا بنبنى هذه البلد كما

نشاء .. يمكن السنين طالت أو الزمن طال ولكن البلد بتاعتنا .. مفيش سياسيين بيعملوا للاستعمار ، مفيش أعوان للاستعمار » .

ومن المعلوم من سيرة عبد الناصر أنه قرأ فى فترة الإعداد الثورى: «حماة الإسلام» لمصطفى كامل و «أم القرى» و « طبائع الاستبداد» للكاتب الوطنى عبد الرحمن الكواكبى وقرأ أيضا كتاب أحمد أمين عن حركات التجديد فى الاسلام به دراسات عن جمال الدين الافغانى وعن الامام محمد عبده وكتابا عن اعلام الاسلام و « وطنيتى » للشيخ على الغاياتى وبعض مقالات عن الشرق وأمجاده القديمة ، للامير شكيب أرسلان منشـــورة فى « اللواء » و « الاخبار » أيام ان كان يصدرها الصحفى الوطنى النزيه أمين الرافعى المعروف بعدائه لكل حل وسط مع الانجليز . كذلك قرأ جمال عبد الناصر فى تلك الفترة من حياته رواية « البؤساء » لفيكتور هوجو فى ترجمة حافظ ابراهيم ورواية « قصة مدينتين » لديكنز عن الثورة الفرنسية ، وكتابا عن أشهر شخصيات فرنسا به فصول عن فولتير وروسو ، ويبدو أنه قد تاثر بهذا الكتاب لانه كتب مقالا فى مجلة المدرسة بعنوان « فولتير رجل الحرية » كما قرأ مسرحية « يوليوس قيصر » لشكسبير واشترك فى تمثيلها مع فريق مدرسته فى الحفل الذى اقامته بمسرح برنتانيا فى ١٩ يناير ١٩٣٥ ، وكان دور يوليوس قيصر من نصيب جمال عبد الناصر .

وقد تركت « عـــودة الروح » لتوفيق الحكيم أعمق الاثر فى شـــخصية عبد الناصر ولمست فيه الجانب الحقيقى لزعامة مصر ، ويقص لنا أصدقاؤه انه كان يضع خطوطا تحت العبارات التى تثير فى نفسه هذه المعانى ، أو تلك التى تستحق وقفة للتأمل والتفكير ، من هذه العبارات المحادثة التى جرت بين عالم الاثار الفرنسى ومهندس الرى الانجليزى حول الشعب المصرى وافتقاره الى قائد مصرى مخلص يلتف حوله ، وفى هذا الموقف يتحاور مفتش الرى الانجليزى مع مفتش الاثار الفرنسى حول الريف المصرى :

« وكان الفلاحون عندئذ قد بدأوا ينهضون زرافات ووحدانا ، كل يحمل فأسه أو منجله ليستأنفوا أعمالهم بالحقول .

فقال الانجليزى لرفيقه :

ـــ لا أرى الا أسرابا من ذوى الجلاليب الزرقاء !

فنظر الفرنسى الى الفلاحين ، ثم قال معجبا :

ـــ ما أجمل ذوقهم الوان لباسهم كلون سمائهم !

فارتسمت على فم الانجليزى ابتسامة تهكم وقال :

ـــ انك تبالغ اذ تحسب لهؤلاء القوم الجهلاء ذوقا !

فأجاب الاثرى الفرنسى بايمان وقوة :

ـــ جهلاء ! ان هؤلاء الجهلاء يا مستر بلاك اعلم منا !

فضحك الانجليزى وقال أيضا فى تهكم :

ـــ لانهم ينامون مع البهائم فى حجرة واحدة !

فأجاب الفرنسى بجد :

ـــ نعم ، وبالاخص لانهم ينامون مع البهائم فى قاعة واحدة .

فالتفت اليه مستر بلاك محدقا مبتسما :

ـــ انها نكتة ظريفة يا مسيو فوكيه !

فأجاب الفرنسى :

ـــ بل حقيقة تجهلها أوروبا للاسف . نعم ، ان هذا الشعب الذى تحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة ، لكنه يعلمها بقلبه لا بعقله ! ان الحكمة العليــا فى دمه ولا يعلم ! والقوة فى نفسه ولا يعلم !

هذا شعب قديم : جيء بفلاح من هؤلاء وأخرج فيه رواسب عشرة آلاف سنة ، من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدرى !

نعم هو يجهل ذلك ، ولكن لحظات حرجة تخرج فيها هذه المعرفة وهــذه التجارب فتسعفه وهو لا يعلم من أين جاءته . هذا ما يفسر لنــا ــ نحن الاوربيين ــ تلك اللحظات من التاريخ التى نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت وتأتى بأعمال عجاب فى طرفة عين !

نعم ، ان أوربا سبقت مصر اليوم ، ولكن بماذا ، بذلك العلم المكتسب فقط ، الذى كانت تعتبره الشعوب القديمة عرضا لا جوهرا ، ودلالة سطحية على كنز دفين ، لا أنه فى ذاته كل شيء .

ان كل ما فعلناه نحن الاوربيين الحديثى النشأة — أن سرقنا من تلك الشعوب القديمة هذا الرمز السطحى ، دون الكنز الدفين . لذلك جئ باوربى وافتح قلبه تجده خاويا ! ..

عندئذ هم الانجليز بالنهوض وهو يقول متهكما :

— انكم معشر الفرنسيين تضحون بالحقائق فى سبيل الكلام ..

— الحقائق ؟ الحقائق معى يا مستر بلاك . انك تعرض بضعف هذا الشعب الآن : اليس كذلك ؟

— وأيضا أخلاقه لا تعجبنى ...

— ثق يامستر بلاك إن الفاسد من هذه الأخلاق ليس مصريا ، بل أدخلته عليها أمم أخرى كالغرب أو الأتراك مثلا ، ومع ذلك فلا يؤثر هذا فى الجوهر الموجود دائما .

— قل لى ما هو هذا الجوهر .

— انك ترتاب فى قولى ، ولكننى أكتفى بأن أقول لك احترس ؟
احترسوا من هذا الشعب ، فهو يخفى قوة نفسية هائلة !

فالتفت مستر بلاك جادا لحظة ، ثم عاد فابتسم ابتسامته المتهكمة وقال :

— يخفيها أين يا مسيو فوكيه ؟

— فأجاب الاثرى الفرنسى بهدوء واقتناع :

— فى البئر العميق الذى خرجت منه تلك الاهرامات الثلاثة .

— .. .. أى بئر ؟

فأجاب مسيو فوكيه بهدوء :

هـــذا !

واشار باصبعه الى الجهة اليسرى من صدره :

— القلب ؟ ..

فسكت الفرنسى هنيهة ثم قال :

ــ نعم ! لنا العذر الا نفهم هذا .. اننا لا نستطيع ان نتصور العواطف التى كانت تجعل من هذا الشعب كله فردا واحدا ، يستطيع أن يحمل على أكتافه الاحجار الهائلة عشرين عاما ، وهو باسم الثغر مبتهج الفؤاد راض بالالم فى سبيل المعبود . انى لموقن أن تلك الآلاف المؤلفة التى شيدت الاهرام ما كانت تساق كرها كما كان يزعم هيرودوت الاغريقى عن حماقة وجهل ، وانمـــا كانت تسير الى العمل زرافات وهى تنشد نشيد لمعبود كما يفعل احفادهم يوم جنى المحصول . نعم لقد كانت أجسادهم تدمى ، ولكن ذلك كان يشعرهم بلذة خفية ، لذة الاشتراك فى الالم من أجل سبب واحد ! ..

هل رايت فى بلد آخر أشقى من هؤلاء المساكين ؟ .. أوجدت أفقر من هذا الفلاح المصرى ؟ ولا اهـــول عملا ؟ .. عمل ليل نهار فى الشمس المحرقة والبرد القـــارس ، وكسرة من خبز الا ذرة وقطعـــة من الجبن مع بعض الاعشاب من السريس وغيره مما ينبت وحده . تضحية مستمرة وصبر دائم ، ومع ذلك فها هم أولاء يغنون !! استمع برهة يا مستر بلاك ! ..

اتسمع هذه الاصوات المجتمعة الخارجة من قلوب عدة ؟ الا تخالها خارجة من قلب واحد ؟ انى أؤكد ان هؤلاء القوم يحسون لذة فى هذا الكدح المشترك . هذا يضا هو الفرق بيننا وبينهم : ان اجتمع عمالنا على الألم احسوا اجرائيم الثورة والعصيان وعدم الرضا بما هم فيه ، وان أجتمع فلاحوهم على الالم أحسوا السرور الخفى واللذة بالاتحاد فى الالم .

ما أعجبهم شعبا صناعيا غدا ! ..

ان هذا الشعب المصرى الحالى ما زال محتفظا بتلك الروح !

فسأله الانجليزى على الفور :

ــ أى روح ؟

فأجابه بثقة وتؤدة :

ــ روح المعبد ! .. أجل يا مستر بلاك ! لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم . ان القوة كامنة ، ولا ينقصه الا شىء واحد .

ــ ما هـــو ؟

ــ المعبود !

فنظر الانجليزى اليه نظرة لا يدرى امعناها الاستيضاح أم الموافقة .

فأجابه الفرنسي بعد هنيهة :

ـ نعم ينقصه ذلك الرجل الذى يتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمز الغاية . عند ذاك لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب والمستعد للتضحية اذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام » ! .

وفى هذه الفترة تعلم عبد الناصر من عودة الروح رغم خيبة الآمال فى النضال السياسى فى الواقع المصرى : الايمان بمصر وبمستقبل مصر .

كتب فى رسالة الى أحد أصدقائه يقول :

« ... لقد انتقلنا من نور الامل الى ظلمة اليأس ونفضنا بشائر الحياة ، واستقبلنا غبار الموت .. فأين من يقلب كل ذلك رأسا على عقب ، ويعيد مصر الى سيرتها الاولى ، يوم كانت مالكة العالم ؟ ؟ أين من يخلق مصر خلقا جديدا ، حتى يصبح المصرى الخافض الصوت الضعيف الامل ، الذى يطرق برأسه ساكنا صابرا على حقه المهضوم ، يقظا عالى الصوت عظيم الرجاء ، مرفوع الرأس ، يجاهد بشجاعة وجرأة فى طلب الحرية والاستقلال » ؟

وبعد أن تبلورت هذه الرؤيا المصرية لدى عبد الناصر ، عدل دراسة الحقوق واختار الحربية ، ويروى أصدقاؤه أنه كان منذ تخرجه ثائرا على الدوام ، ينقد كل ما فى مصر من أخطاء وكانت مناقشاته لاصحابه وزملائه لا تدور الا عن مصر ومستقبلها ، ونقل الى منقباد بأسيوط التى يصفها رفيق نضاله أنور السادات بقوله :

« فى هذه البيئة الخالصة حيث يشعر المصرى بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه . وفى الشتاء حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف فتزداد الروابط بين الاصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة وينتصرون بها على عواء الرياح » . ويصفه أنور السادات بقوله :

« ولا تدرى لماذا كان يتوسطنا دائما شاب رفيق وديع عامر النفس بالصفاء . لم يكن يكبرنا سنا ، ولا رتبة . فقد كنا جميعا ابناء « دفعة » واحدة ! ولكنه كان الملتقى الذى جمع صداقاتنا جميعا . كنا نمرح ، نضحك عاليا ، ونسخر من كل شئ . ولا ترحم السنتنا أحدا .. وأحيانا نعنى !

« وكان يصنع كل ما نصنع ، ولكنه كان مع ذلك أيضا يفكر .. يفكر بقلبه ، ويفكر بوعيه ، ولا نكاد ننطلق فى المرح ، حتى نجد موضوعا هادئا .. يثير بيننا جمال عبد الناصر » .

« وربما كان موضوعا شخصيا ، وربما كان موضوعا عاما ، وربما كان ذكريات عابرة تمر به من حياته ، فلا يلبث أن يستنبط منهـا فكرة أو رأيا ، يثير بيننا مناقشة طويلة . هادئة . وكان جمال يطوى نفسه على كثير من الآلام الشخصية .. آلام يذكرها منذ توفيت والدته وهو صغير ، فأثرت وفاتها فى حياته تأثيرا كبيرا .. لعل من أظهر عناصره شدة الحياء التى طبعت حياته حتى اليوم .

« وكان الى جانب حياته وهدوئه يمثل الشخصية الكاملة لابناء الصعيد .. فهو يكيف الحياة بمثله « الصعيدية » الخاصة ، فنجده وديعا رقيقا ملىء الصدر بالحنين ، اذا لمست نفسه لمسة عاطفية قد لا تحرك أحدا من الناس ، ولكنه ينقلب أسدا هصورا فى اللحظة التى يشعر فيها بأن أحدا يفكر ، مجرد التفكير فى الاعتداء عليه .. » .

« وكان هذا الصديق بيننا صـورة حلوة للأخاء ، والصداقة والاتزان والهدوء والكرامة .. فكان لهذا كله يستأثر باحترامنا جميعا ، فكأنه فى سكونه وهدوئه وطابعه الخاص ، معنى مجسما حيا ، لكل المعانى والانفعالات التى يمكن استخلاصها من تفاعل العواطف الانسانية المتضاربة فى انسان قست عليه الحياة .

« وهكذا ، وحول هـذا الرجل ، التأمت مجموعة من الضباط الصغار الاصدقاء لم يكن أحد يدرى أنها ستكون نواة لمجموعة أكبر وأكبر ، وان اجتماعها فى تلك « القباب » البعيدة لن يكون مجرد صدفة تمر ، ويتشتت من بعدها شمل الاصدقاء ، وانما سيكون البدء الحقيقى لجهاد عنيف ومحن كثيرة وعمل خطير .. » .

وننظر فى رسالة كتبها فى تلك الفترة من السودان الى أحـد أصدقائه فى مصر مصورا آماله :

« سيكون أمامك المستقبل ، ولكنه يحتاج الى جهاد .. ولا لذة لمستقبل دون جهاد .. فالحياة الخاملة ، أو الطريق المرسومة المعروفة تنعدم فيها اللذة .. كل عيبى هنا أننى « دغرى » لا أعرف الملق ولا الكلمات المنمقة ولا أتمسح بالاذيال .. ان شخصا هذه صفاته يحترم من الجميع ، ولكن الرؤسـاء يسؤوهم ذلك الذى لا يسبح بجهدهم ، ويسؤوهم ذلك الذى لا يتملقهم فهـذه كبرياء فى نظرهم — وهم الذين اعتـادوا الذل فى كنف الاستعمار .. انهم يقولون : كما كنا ، يجب أن يكونوا ، وكما رأينا يجب أن يروا ! .. والويل كل الويل لذلك المتكبر الذى تأبى نفسه السير على منوالهم ..

ويحزننى أن أقول : ان هـــذه السياســـة نجحت نجاحا باهرا .. فهم يصهرون نفوس الشبان ، وكلهم شباب لم تضللهم الايام بعد .. ويحزننى ان هذا الجيل قد أفسده الجيل القديم ، فأصبح منافقا متملقا .. ويحزننى أن أقول أننا نسير الى الهاوية بالرياء ، والملق ، والنفاق ..

أما أنا ، فقـــد صمدت وما زلت .. ولذلك تجدونى فى عداء مستمر مع هؤلاء الكبار .. » .

وتكشف هذه الصفات جميعا عن سمة من أوضح السمات فى الشخصية المصرية لدى عبد الناصر ، وهى الصراحة والجرأة وطبيعة النضال فيه ، وهو الامر الذى جعل رؤساءه فى الجيش يضيقون به لانه « دغرى » فينقلونه الى الكتيبة الثالثة مشاة فى السودان .. وكانت صراحته وسيلة لابداء الحق والاعراب عن الرأى وكشف رذيلة الرياء ودفع مذلة الخنوع عن الشخصية المصرية .

وهى الصفة التى ظلت ملازمة لشخصيته طوال كفاحه المرير قبل الثورة وبعد الثورة ، يقول جورج فوشيه :

« لقد كان عبد الناصر فى مفاوضاته على موضوع التعويضات عن الاضرار الناجمة عن العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ متشددا فى مطالبه وكان المتحدث الذى لا يمكن انتزاع شىء منه دون مقابل » .

وصفة النضال فى الشخصية المصرية بعثها عبد الناصر ، وايقظها ، فكان الانتصـــار المصرى فى بور سعيد تأكيدا لهذه الصـــفة فى الشعب وفى القائد .. يقول عبد الناصر :

« هذا الشعب استشهد وقدم الشهداء والدماء فى سنة ١٩٥٦ ، ولميبخل بالدماء ، لم يخف .. لم ترهبه القوى الغاشمة . .لم ترهبه الطيارات.. ولمترهبه الدول الكبرى .. لمترهبه بريطانيا ، ولافرنسا ولااسرائيل..» .

«وانما قاوم وصمم لانه آمن بنفسه وبحقه فىالحرية والحياة وآمن بنفسه وبحقه فىالاستقلال ، وقام ليستشهد .. قام وكافح وحمل السلاح واستطاع بعون الله أن ينتصر فضرب للعـــالم المثل على أن الايمان يستطيع أن يهزم الدول الكبرى .. وعلى أن الشـــعوب المؤمنة بنفسها وعلى ان الشعوب المؤمنة بحقها فى الحرية والحياة تستطيع أن تتمتع بالحرية والحياة وعلى أن الشعوب اذا صممت أن تترك وراء ظهرها أساليب الاستعباد وأساليب الاستبداد وأن تسير فىطريقالحرية الحقةوالديموقراطية الحقة..تستطيع

ولو تصدت لها الدول الكبرى .. ولو تصدت لها أساطيل بريطانيا ولو تصدت لها جيوش فرنسا » .

وتأكدت الصفة النضالية المصرية رغم نكسة يونيو ١٩٦٧ ، فها هو عبد الناصر يقرر التنحى وتحمل المسئولية فى النكسة كلها ، واعتزال الحياة السياسية ، ولكن النضال المصرى الحقيقى ظهر فى يوم ٩ و ١٠ يونيو يطالب ببقاء الزعيم والقائد ، ويعتبر عبد الناصر يومى ٩ ، ١٠ يونيو تفويضا من الشعب ، للنضال .

يقول عبد الناصر فى ٣ مارس ١٩٦٨ :

« فى ظروف ما بعد النكسة لم تكن الارض صلبة ، كل حاجة فيها بتهتز ، النكسة كانت بمثابة زلزال كبير ، لم تكن الارض واسعة لقد كان مجال التحرك العملى أمامنا ضيقا ومحصورا ، الشعب رفض الهزيمة ، وصمم على المقاومة ، الشعب لم يفرط فى ارادته وانما تمسك الشعب بارادته ، وفرض بها ضرورة الاستمرار فى المقاومة مهما كان الثمن لكن ارادة الصمود ليست مجرد عاطفة وشعور وانما ارادة الصمود ولابد أن تدعمها امكانية الصمود» .

تلك هى الطبيعة النضالية لدى عبد الناصر مستمدة من طبيعة مصر النضالية على مدى التاريخ .

لم يكن عبد الناصر رجل نضال فحسب ، ولكن فيه من طبيعة الشخصية المصرية انه مناضل لانه حى جياش الطبيعة عطوف صدوق حسن المودة والانس بالناس .

فهذا المناضل المصرى حياته لم تكن أبغض اليه من رؤية العنف ولا مشاهدة الحزن والمحزونين ، فرغم أنه ألتحق بالكلية الحربية لتغيير أوضاع بلاده بالثورة ، لم تدخل فى نفسه فكرة تصفية الخصوم والاعداء كما كانت سائدة فى ذلك الوقت . وعلى الرغم من انه قد خطط لاغتيال الشخصيات المسئولة عن ذل مصر وهوانها ، الا انه لم يكن مستريحا فى أعماقه الى تصور العنف على انه العمل الايجابى الذى ينقذ الارض الطيبة .. ولندعه بنفسه يصور لنا هذه الحقيقة فى شخصيته :

« كانت فى نفسى حيرة تمتزج بها عوامل متشابكة .. عوامل من الوطنية ، والدين ، والرحمة ، والقسوة والايمان والشك » .

« واذكر ليلة حاسمة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا الاتجاه .. » .

«كنا قد أعددنا العدة للتخلص من واحد قلنا انه يجب أن يزول من الطريق، ودرسنا ظروف هـذا الواحد ، ووضعنا الخطة بالتفصيل ، وكانت الخطة أن نطلق عليه الرصاص وهو عائد الى بيته ليلا .. ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى اطلاق النار ، ورتبنا فرقة الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم .. كما رتبنا خطة تنظيم الافلات الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح ..

« وجاءت الليلة الموعودة ، وخرجت بنفسى مع جماعة التنفيذ وسـار كل شى طبقا لـما تصورناه ..

« وكان المسرح خاليا كما توقعنا .. وكانت الفرق فى أماكنها المحـددة وأقبل الواحد الذى يجب أن يزول ، فانطلق الرصاص نحوه ، ثم انسحبت فرقة التنفيذ وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الافلات الى النجاة .. وأدرت محرك سيارتى وانطلقت أغادر مسرح العملية ..

« وفجأة ، دوى فى سمعى صراخ وعويل ، وولولة امرأة ا وبكاء طفل مرعوب ، ثم استغاثة متصلة محمومة .. وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الثائرة تندفع الى بسرعة .. ثم أدركت شيئا عجيبا .. كانت الاصوات ما زالت تمزق سمعى رغم ابتعادى عن مسرح العملية بأكثر مما يمكن أن يسرى الصـوت .. ومع ذلك ، فقد بدأت الصـورة تلاحقنى وتطاردنى ..

« ولم انم طوال الليل .. كنت أسائل نفسى : « هل كنت على حق .. اكانت تلك هى الوسيلة الوحيدة التى لا مفر منها .. أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا اذا تخلصنا من هذا الواحد ، أو من غيره .. أم المسألة أعمق من هذا ؟ » .

« وخلصت من هذا التفكير الى نتيجة حاسمة : « اننا نحلم بمجد أمة ، يجب أن نبنى هذا المجد .. واذن ، يجب أن نغير طريقنا .. ليس هـذا هو الحل الايجابى الذى يجب أن نتجه اليه .. المسألة أعمق جذورا ، وأكثر خطورة ، وأبعد غورا » .

« وفجأة ، وجدت نفسى أقول : ليته لا يموت !

وكان عجيبا أن يطلع الفجر ، وأنا أتمنى الحياة للواحد الذى تمنيت له الموت فى المساء !

«وهرعت فى لهفة الى احدى صحف الصباح .. وأسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله قد كتبت له النجاة .

وطبعت هـذه الطبيعة المصرية فى شخصية عبد الناصر ثورة ١٩٥٢ ، وكانت أول ملامح الصورة المصرية طرد صاحب التاج واعادة مقاليد الامور الشعب دون اراقة دماء ، وكانت تلك السمة المصرية ، المستمدة من طبيعة الشخصية المصرية التى تكره الدماء هى الطابع الذى طبع ثورة عبد الناصر منذ قيامها فى يوليو ١٩٥٢ ، ونذكر فى هذا المقام حديثا دار بين عبد الناصر وبين الكاتب البريطانى ديزموند ستيوارت فقال له عبد الناصر :

« هل قرات قصة ديكنز المشهورة « قصة مدينتين » ؟ لقد قرأتها عدة مرات ورايت كيف صـور الكاتب بشاعة القسوة واعمال العنف والارهاب التى سادت فرنسا فى ذلك الوقت . لقد علمتنى هذه القصة شيئا .. اننا اذا شرعنا فى القتل واراقة الدماء فانه سيكون من الصعب حقن الدماء .. » .

ويتساءل عبد الناصر :

« ما فائدة الثورات اذن .. اذا كانت ستؤدى الى الارهاب والى البطش وسفك الدماء » .

ومن هنا كانت الرؤيا المصرية للثورة واضحة فى فكر عبد الناصر عندما حدد من البداية أن هناك ثورات سياسية ضـد الظلم وضـد الاستعمار السياسى ومن أجل التخلص من الاستعمار وأعوان الاستعمار .. وبدأت فى نفس الوقت ثورة اجتماعية تهدف الى تحقيق العدالة الاجتماعية .. يقول عبد الناصر :

« واحنا من قبل الثورة كنا نحس ونشعر ونرى هذه الثورة .. ولكن منذ أول يوم من الثورة بدأنا أيضـا فى الثورة الاجتماعية .. من أول يوم فى الثورة قلنا ان احنا بنجابه ثورتين سياسية واجتماعية فى كتاب فلسفة الثورة فى الخطب اللى قلتها فى أول يوم من أيام الثورة ان علينا أن نجابه ثورتين .. ثورة سياسية وثورة اجتماعية ومرة قلت ان علينـا أن نجابه ثورة ثقافية لان الثورة الثقافية لازمة لنا علشـان ندعم ثورتنا السياسية ولازمة لنا علشان ندعم ثورتنا الاجتماعية وقلنا أيضا من الاول ان الثورة السياسية تحتاج الى تجمع قوى البلاد ضد الاحتلال وضد الاستعمار وضد اعوان الاستعمار وقلنا ان الثورة الاجتماعية بتفرض أن تمنع الاسـتغلال وان نعيد توزيع الثروة » .

ويتحدث عبد الناصر عن معارك ثورته مع الرجعية ، حديثا نستشف منه ما قلناه عن شخصيته المصرية :

« ... وواضح كل الوضوح أن الرجعية أقامت نفسها ، والرجعية شبت فى الاتحاد القومى ، وبعدين مبقناش نقول ان ده رجعى كنا بنقول والله ده راجل طيب وماشى .. العملية أبدا مش فلان راجل طيب لان هو فى العملية دى بيستغل مثلا عشرة آلاف جنيه ويعمل غدا ، ويوم الجمعة فول نابت وشوية عيش بخمسة جنيه ، ويسلم الناس وكل الناس بيقولوا فلان الفلانى دى راجل طيب. .يعنى. .يعنى العملية هى استغلال،أو يدبح دبيحةكل شهر أو شهرين ويجب الناس اللى هو واخد فلوسهم وواخد عرق جبينهم يوكلهم أكلة ويقولوا الله الراجل ده راجل طيب ، دبح لنا دبيحة ، وعملية مش عملية حسنة ، ولا العملية عملية حقوق ، وعملية واجبات . والله بكل أسف احنا فكرنا بهذه الطريقة وانضحك علينا تمام زى ما انضحك علىالفلاحين اللى بيدبحوا لهم دبايح كل يوم جمعة وبيغدوهم أو بيعشوهم وقلنا والله ده راجل طيب فلان فيه شىء لله .

« وابتدأنا يعنى حسن النية كان من جانبنا متوفر ١٠٠ ٪ وهم استغلوا بقوا يقولوا الثورة دى رحيمة ، الثورة .. يعنى بقوا يقولوا نكت يقولوا ما هو اللى بيعمل حتى مؤامرة ، اذا نجحت المؤامرة يبقى رئيس جمهورية وان ما نجحتش بيروح شركة ، رئيس مجلس ادارة شركة ، الكلام ده معروف يعنى كله ، وأنا باسمعه وعارفه .

« استغل الكلام استغلال كامل ، واستغلت العاطفة ، يعنى معروف يعنى تلاقى لو حد اعتقل منا ، ثانى يوم عارفين أبص ألاقى ولاده ومراته بعتين جـوابات ، واللى جايين ، يقولوا والله دى نقطة ضعف وهم عارفينها ، اللى هى الرحمة والعملية اللى زى كده .

لكن من ناحيتنا ، طبيعى لا بد أن تكون هناك رحمة لاننا احنا مسئولين عن المجموع من ناحيتنا ضرورى ان احنا نحاول بكل وسيلة من الوسائل أن نحل الخلافات فى اطار من الوحـدة الوطنية . « من ناحيتنا ضرورى ان احنا ما نكنش بأى حال من الاحوال البادئين العدوان . ولكن يجب أن احنا نحل مشاكلنا بالوسائل السلمية ، ونحل مشاكلنا بأقل ما يمكن من الخسـائر .

« من ناحيتنا كان لازم نأخذ هذا الاسلوب » .

تلك هى الشخصية المصرية فى ثورتها لا تقبل الدماء ، وتتسم بالرحمة ولعل ذلك هو ما جعل الكاتب الانجليزى « جيرالد سبارو » يقول فى كتاب « زيارة لمصر » :

« ان شعب مصر له ماض عريق ، وهو فى زحفه المقدس اليوم يستمد حوافزه وقواه من ماضـــيه العظيم .. ولا شك أن لثورة ٢٣ يوليو تأثيرا كبيرا فى تنظيم هذا الشعب .. وأن لشخصية عبد الناصر التأثير القوى . وان آمال الشعب المصرى قد تجسدت فى فكر هذا الزعيم .. ولقد خاض الشعب معارك عديدة لكن يقظته بقيادة «ناصر» ووضوح الرؤية أمامه سحقت كل ما دبرته ضد الامة العربية .. ولا شك أن ناصر يمثل فى حقيقته المستقبل العظيم الذى ينتظره العرب جميعا .. » .

* * *

وفى عبد الناصر من طبيعة الشخصية المصرية أنه مناضل لأنه لا ينسى وشائح الرحم وآداب الاسرة . فالاسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ ، ولن يتجرد المصرى من عواطف الابوة والامومة والبنوة والقرابة وذلك هو قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاته . والوصايا المصرية القديمة معروفة منذ آلاف السنين . وفى هــذه الوصايا يقول الحكيم : « ضاعف لامك خبزها واحملها كما حملتك ، لقــد أثقلتها وما نبذتك ، وظلت تحملك حول عنقها بعيد ميلادك وظل ثديها ثلاث سنوات فى فمك ، ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا اصنع بهذا ؟ وارسلتك الى المدرسة تتعلم الكتابة ، ووقفت لك بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك . واذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة ، عسى أن لا تصيبك بضرر ولا ترفع يديهـــا الى الله بالدعاء عليك ولا يستمع الله منها الى شكاية » .

كمـــا أغنى الحكيم فتاح حتب الادب المصرى القديم بالنصائح فى آداب الاسرة حاثا على رعاية الام والزوجة بما يشيع الرحمـــة فى البيت ويغرى بالتعاطف والود فيه .

هذه التقاليد البيئية تشكل فى الشخصية المصرية جانبا أساسيا تنبع عنه فى تصرفاتها الاخرى .

وقديما قال المصريون بتقديس المرة ، ولم يكن المصرى القديم يفـــارقها فى صـــوره وتماثيله ، ولعل ذلك التراث العظيم كله ما جعل عبد الناصر كوريث لهذا التراث أن يؤكد فى الميثاق :

« ان الطفولة هى صانعة المستقبل ، ومن واجب الاجيال العاملة ان توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح .

« ان المرأة لا بد ان تتساوى بالرجل ولا بد ان تسقط بقايا الاغلال التى

تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وايجابية فى صنع الحياة » .

فهذه الرحمة البيتية ، مصرية على طوال التاريخ ، وقد اتسمت بها شخصية عبد الناصر منذ طفولته حتى أودع مثواه الاخير .. وقد كان لذلك الميراث التاريخى أثره فى ايديولوجية عبد الناصر كما يقول « توم لتيل » : « ان عبد الناصر لم يتأثر فى سياسته بأية ايديولوجيات مستوردة من الشرق أو الغرب .. وأن أعماله وآراءه وأهدافه السياسية التى يعلنها صراحة على العالم لا تحمل أى مفهوم من المفاهيم السياسية المتعارف عليها فى كتلتى الشرق والغرب .. ذاتها من التاريخ والتقاليد .. من الماضى والحاضر ، من الآلام والآمال ، التى تكون شخصية أبناء وطنه .. ومن هذا كله استمد جمال عبد الناصر مقومات الايديولوجية التى يأخذ بها » .

ولقد تأثر جمال عبد الناصر لوفاة والدته وهو فى مقتبل حياته أيما تأثر ، ذلك أنه كان يحبها حبا خالصا عميقا ، وهو الحب الذى يتمتع به المصريون ، وفى عام ١٩٤٣ تزوج عبد الناصر .. وكانت هذه العواطف البيتية تشيع حياة أسرته حبا واحتراما وتقديرا بينه وبين أهل بيته وشريكة حياته حتى آخر لحظة .. واصبح عبد الناصر أبا وزعيما وقائدا .. ولم تتغير حياته الخاصة ، فالبيت هو نفس البيت الذى كان يقيم فيه منذ الثورة والحديقة هى نفس الحديقة ونظام الحياة الطبيعى العادى هو بعينه — فقد رفض أن ينتقل الى أحد القصور الملكية السابقة وفضل أن يعيش كما يعيش اى مصرى عادى من الطبقة المتوسطة ، حياة بسيطة يتمسك فيها بالتقاليد المصرية « المحافظة » فى غير تزمت ، التقاليد التى تحب الألفة وتعرض عن البدع والخوارق يحوط أولاده بعناية خاصة رغم مشاغله الكثيرة ، فيراجع شهاداتهم المدرسية الشهرية ويوقعها بنفسه ويحضر حفلات المدرسة حتى لو اضطر الى تأجيل اجتماعات هامة .

حدث مرة .. عام ١٩٥٤ ، ووقتها كان عبد الناصر رئيسا للوزراء أن دعى لحضور حفل روضة الأطفال فى كوبرى القبة باعتباره ولى مر لطفلتين ، هدى — ٨ سنوات ومنى — ٧ سنوات .. وامتد الحفل واضطر الى أن يتأخر عن موعده مع سفير سوريا ، وعندما لقيه اعتذر له وقال « السلام والاستقرار فى بيتى تهمنى المحافظة عليهما كما تهمنى المحافظة على السلام فى العالم العربى » .

وهو لذلك يؤكد فى الميثاق الوطنى «أن الاسرة هى الخلية الاولى للمجتمع، ولابد أن تتوافر لها كل اسباب الحماية التى تمكنها من أن تكون حافظة للتقليد

الوطنى ، مجـددة لنسبة متحركة بالمجتمع كله ، ومعه الى غايات النضال الوطنى » .

وكان لعبد الناصر راى فى تربية الأطفال يقول فيه : « فى الناس من يرى ان الشدة أسلم طريق لتربية الاولاد تربية صحيحة وأن السوط المعلق أمام الابناء يصل بهم الى النجاح .. ومنهم من يرى أن لين الجانب على عذوبته اقطع فى النفس وافعل فيها من الشـدة على فظاعتها .. وأعتقد أنه ربما كانت الابتسامة على شفتى الاب أمام أبنائه لها الاثر الحلو الجميل مايعجز عنه احد السيوف وأقسى السياط وليس معنى هذا اننى أتحيز لفكرة تدليل الاطفـال .. لا .. بل أرى انه من الضرورى أن نمزج فى حكمـة ورفق بين النظريتين ، فنكون معهم فى لين بغير ضعف وفى شدة من غير عنف ... نقتص منهم مرة ونجزيهم على الحسن من أعمالهم فيخرج الولد الى الحياة محبا للعدالة كارها للعدوان لا يريد الا الحق ولو على نفسه .

واننى أحاول بقدر ما استطعت ان أكون لابنائى الصديق الوفى والمرشد الامين .. أعرف كيف ومتى احنو .. وكيف ومتى اقسو .. وأعمل على تفهم نفسياتهم تفهما صحيحا وأمنحهم الحرية التى لا يسىء اليهم استعمالهـا واذا اتيحت لى الفرصة أراجع دروسهم واشترك معهم فى تفهمها حتى أحببهم فيها فان من أهم توفيق الصغار فى ميدان العلم هو حبهم لدروسهم وهـذه مهمة يشترك فيها البيت والمدرسة واخيرا فاننى ابذل ما فى وسعى من جهة لكى أدخل فى تصورهم ان لهم ابا أبر وارحم من أبيهم اسمه الوطن وأما أحسن من أمهم اسمها « الامة » وبيتا أكبر من بيتهم اسمه « مصر » .

وقد كان هذا الرى النظرى فى فكر عبد الناصر سلوكا عمليا فى حياته ، فكان فى امكانه مثلا أن يملك على الاقل الجدران التى تستر أسرته ، والسقف الذى يعيش تحته دون أن يلومه أحد .. وكان يستطيع ، دون عبء على ضميره ، أن يترك لزوجته وأولاده ثروة معقولة .. يواجهون بها الحياة من بعده .. ولكن هذه الشخصية المصرية لدى عبد الناصر جعلته مشغولا بأسرة أكبر وبشعب بأكمله ، شـغله حق الفلاح فى الارض والعامل فى الربح والمثقف فى الوظيفة والجندى فى السلاح والطفل فى المستقبل ، وسع قلبه مصر كلها فلم يفكر فى امتلاك أمتار منها وشغله بناؤها عن أن تكون له غرفة فيها .. تلك هى السمات المصرية فى النظرية والسلوك . ان جوستاف لوبون يقول « ان أشد عاطفة كانت عند المصريين يعربون عنها بغير تعقيدات لفظية أو تعبيرات فاترة ، ويصورونها باخلاص وتأثر ، انما كانت عاطفة حب الوطن .. حب وادى النيل الذى أسموه دائما (الارض كلها) كأنه لا دنيا سواه . هذه العاطفة هى أجمل ما اعربوا عنه اكبر ما ضمنوه حقيقة تأثرهم

فى أدبهم القديم » وهى أجمل ما أعرب عنه جمال عبد الناصر ، وأكبر ماضمنه حقيقة تأثره فى تراثه كله ..

يقول الكاتب الامريكى الشهير جون جنتر فى كتابه « فى داخل أفريقيا » :

« يعد عبد الناصر زعيما عربيا فريقيا .. وبرز ما فى خلقه تجرده عن الهوى تجردا مقترنا بالقوة .. لا يريد شيئا لنفسه وكل ما يستهدفه هو حياة وطنه . ون مصدر قوته هو ن يعمل لغاية .. هى تحرير بلاده .. وهو يقدم لمواطنيه ما لم يحلموا بالحصول عليه .. وفى خلال أعوام قليلة حقق ما لم تكن تحلم بلاده بتحقيقه ولا بعد ١٥٠ سنة . وأن اخلاصه وأمانيه المطلقة وصراحته السياسية تجعله فى نظر الكثيرين من أصـــحاب العقلية القديمة من الظواهر العجيبة التى لا يمكن فهمها .

« وناصر رجل نزيه جدا ، لايطلب لنفسه شيئا وهو رجل قوى ذو مبادىء خلقية رفيعة . وعقيدة فكرية راسخة ومصدر قوته هو الشعب . الذى يرى فيه آماله وأمانيه ولذلك فان كل همه تحقيق أقصى ما يستطيع من رفاهية الشعب والنهوض ببلاده اجتماعيا واقتصاديا ... » .

وصـــايا عبد الناصر البيئية وصايا مصرية .. وما أعجب الشبه بينها وبين وصايا المصرى القديم « داوود ـــ سى ـــ خاردا » فى تعليماته لولده « بابى » :

« اذا كنت قد وجهتك الى خناعى (١) فلست محمولا الا بدافع من حبى لك لان اليوم الذى تستفيده من المدرسة يبقى الى الابد وتبقى الاعمال فيه بقاء الاجيال .. فبادر ثم بادر لتعرف بين الناس وتحسب منهم » .

من أجل ذلك كله أصبح للمرأة العاملة فى الثورة الناصرية حقوق الرجل وحقوق الام ، فاهتم عبد الناصر فى بيـــان ٣٠ مارس ١٩٦٨ بأن ينص فى الدســـتور على أهمية تحرير المرأة وحماية حقـــوق الامومة والطفولة والاسرة ...

ونالت المرأة فى الثورة الناصرية حق التصويت والاشتراك فى الانتخابات العـــامة .

---

(١) خناعى : مدينة بالوجه القبلى مشهورة بمدارسها الادبية .

ونذكر أنه فى مؤتمر المبعوثين فى عام ١٩٦٦ اهتم بموضوع زواج المبعوثين من اجنبيات وقال لهم : لن سنزوج بناتنا اذا أتى كل مبعوث منكم بزوجة من الخارج .

فكيف لا تكون تلك الوصايا البيتية الناصرية مصرية مائة فى المائة ، وهى لرجل عاش سنى حياته كلها للكشف عن الشخصية المصرية واعادة بنائهـــا .

والشخصية المصرية فى حياتها شخصية عاملة ، كما هى شخصية عملية فى النظر الى الحياة ، ولقد تمتع عبد الناصر من هذه الشخصية بذهن عملى واقعى سهل المنطق واضحة فى نظرته الى الدنيا وحكمه على الأشـــياء والناس ، وهو عملى واقعى حتى فى ثورته وهجومه ..

ولقد كانت هذه السمة مشهودا لها بين معاصريه من الساسة والحكام ومن عامة الناس ، ونذكر فى هذا الصدد شهادة المفكر الفرنسى اليهودى المتعاطف مع العرب مكسيم رودنسون « كان عبد الناصر عند دخوله الكلية الحربية ، ضابطا شابا طموحا وبعيدا الى حد ما عن حقائق العالم السياسى والاجتماعى . ولكنه يتعلم بسرعة بفضل الدروس الصعبة التى آمدته بها تجربة السلطة ، وكذلك بفضل ذكائه الفطرى وانفتاحه الدائم واستعداده لتلقى الدروس واستخلاص النتائج من الاحداث . كان عبد الناصر رجلا سياسيا ، يقيس الامور بنتائجها ، واقعيا ، دون أى ميل للاجراءات العنيفة والمتعمقة فى الثورة » وقد عرف كيف يتكيف مع حاجات المنطقة وظروفها .

« ولا بد من الاعتراف لعبد الناصر ، بعيدا عن التطرفات التى لا تنجو منها أية سلطة بالاخلاص الشديد لكل ما يمس شعبه وطبقته .

« لقد ظل وفيا لافكار الشباب التى كانت تدفعه الى أن يعرض نفســـه لهراوات الجيش الاجنبى ورجال الشرطة .

« وأفضل تحية يمكن أن توجه اليه ، عبارة وجدتها عند احد عملاء وكالة « إن الازعاج الحقيقى الذى يسببه ناصر هو أنه ليست له رزائل . وهذا ما يجعله معصوما . فلايمكن شراؤه أو استمالته . اننا نكره شجاعته ولكننا لا نملك أن نفعل معه شيئا . انه نزيه الى درجة مذهلة ، هذا هو كل شىء .. » ويضيف المفكر الفرنسى ان هذا الاخلاص المتأصل فى عبد الناصر هو الذى جعل منه رمزا وللكثيرين مثالا يحتذى .

« فى مرحلة الشباب كانت أفكار عبد الناصر ملأى بصورة مصر مستقلة بشكل تام وسيدة تطور يسمح لها بأن تصبح بلدا مستقلا ينعم بالبحبوحة ،

« الباقى مجموعة بنيات سياسية واجتماعية تسير شئون البلد .

« ولكن هذا كله لم يكن سوى تفاصيل قابلة للفحص والتدقيق تبعا لمدى توافقها مع الغرض الأساسى »

ومن مواقف عبد الناصر العملية ، ما حدث فى يوليو ١٩٥٢ حيث يجتمع عدد من الضباط المصريين الشبان يتفحصون البيان الاول للثورة عندما يكتب لهـا النجاح وبعد أن يتم الاستيلاء على مقر الاذاعة ، ويضعون فى الوقت نفسه الترتيبات الاخيرة لساعةالصفر عندما تتحرك وحدات الجيش للاحاطة بالملك والرجعية ، والاستعمار . ولكن المجتمعين فوجئوا بمكالمة تليفونية من ضابط رفيق لهم يخبرهم ، بأن قيادة الجيش قد أحست بشىء ، لان القائد العام أمر باجتماع طارىء وسريع لقواد الجيش ، وأن الاجتماع قد بدأ فعلا منذ لحظات .

ويسود الصمت لحظة ، كما يروى الواقعة المؤلف الفرنسى جان وزوجته سيمون لاكويتر فى « زحف مصر » ، ليقطع الصمت صوت ضابط شـاب وهو يضحك :

ــ هذه فرصة رائعة لان نقدم ساعة الصفر ونتحرك فورا ونقبض على الجميع فى وقت واحد ومكان واحد .. وكان صاحب هـذا الصـوت هو عبد الناصر .. صوت الزعيم العملى الذى يحسم الموقف فى سرعة كومضة السيف .

تلك هى طبيعة الحسم العملى فى شخصية عبد الناصر ، أو هى كمـا يسميها الكاتب الفرنسى وزوجته حين قال : « كان عبد الناصر رجل فعل وليس رد فعل » كان ايجابيا وعمليا حاسما ، فعندما تآمرت الاحزاب حلها، وكان عمليا حاسما حين أمم قناة السويس ، وكان عمليا حاسما وهو يصمم على بناء السد العالى الذى تآمرت على انجازه أمريكا طويلا . وكان ذلك الانجاز المصرى كما يقول الكاتب الانجليزى « توم ليتل » فى كتابه « النيل يخضع لارادةالانسان » :

« ومما لا شك فيه ان عبد الناصر سوف يخرج بعد انتهاء هذه الحقبة ــ حقبة بناء السد العالى ــ أعظم ما أنجبته مصر فى تاريخها الطويل . وسوف

يسجل له التاريخ أن العبد العالى قد مثل نقطة التحول الجوهرية فى تاريخ مصر المعاصرة .. وكان ذلك أيام حكم عبد الناصر » .

* * *

وتميزت شخصية عبد الناصر بفكاهة مصرية حاضرة على البديهة ، والمعلوم ان هذه السمة تميز الشخصية المصرية ، وهى فيها أقوى وأظهر ، فكان المصرى مزاحا بحكم لباقته المستفادة من قدم الحضارة ، ومزاحا بحكم الحوادث التى تلجئه الى التخفيف وقلة الاكتراث ، ومزاح عبد الناصر فى جميع أحواله متسم بالصبغة المصرية ، مطبوع بطابع اقليمه وتاريخه ، بحيث ينم على خصائصه الفكرية والنفسية ويميزه نمطا وحده قليل النظائر . ذلك أن الشخصية المصرية تتمتع بما يسمى « روح الفكاهة » عند الافراد والجماعات ، وعلى الرغم من أن كلمة الباحثين قد اجتمعت على أن « الحس الفكاهى » هو سمة هامة من سمات الشخصية المصرية ، الا أن تحديد مضمون هذا الحس قد اختلف من باحث الى آخر ، فقال قوم بأنه نوع من الاستبصار ، وذهب آخرون الى أنه ضرب من الاحساس الفلسفى بالحياة ، بينما حاول غيرهم أن يربط بينه وبين المزاج الخاص .. الخ .

وقد كانت هذه الروح المصرية تشيع فى خطبه وأحاديثه ولقاءاته بالجماهير التى كانت تحبه وتألفه وتأنس اليه ، وتتعلم منه ، فهو عندما يتحدث يستخدم التكرار فى شرح معانى الثورة ويبسطها ويستخدم أسلوب « أبناء البلد » فى ذكر الامثلة ، كما يستخدم « النكتة » والافاضة فى الحديث بهدف أن يمس كل فئات الشعب بمستوياته المختلفة .

ونذكر فى آخر لقاء له بالجماهير فى ختام جلسات المؤتمر القومى العام (١٣ — ٢٦ يوليو ١٩٧٠) قال :

« ان الشعب المصرى تحت أعلام هذه الثورة رفض السلامة عن طريق الانعزال .. ورفض الانانية برفض كل مغرياتها الوقتية .. لقد جعل قضية أمته قضيته ..

وعاش النضال من أجلها مضحيا بحياته .. وكان فى ذلك يصدر عن وعى بمسار التاريخ ، لم يساوره فيه شك أو تردد . أثبت أبناء هذا الشعب دائما أنهم الامناء . الامناء بالكلمة والامناء بالفعل » .

وفى نفس الحديث يحذر الجماهير بهذه اللغة المصرية البسيطة :

« ممكن يحصل استغلال .. فى كل مكان فى الدنيا ممكن يحصل استغلال .. لكن اذا كان كل واحد فينا سياسى فهو يستطيع أنه يقضى على هذا

الاستغلال .. متقعدش تقول : الله .. ده فيه استغلال وجمال عبد الناصر سايب ده ليه .

« جمال عبد الناصر ليه عينين اثنين .. ويادوبك انه يقدر يعنى عنده فى اليوم ٢٤ ساعة يعنى ما يقدرش يشتغل أكثر من كده .. ولا يشوف أكثر من كده .. احنا هنا ٣٠ مليون عندنا ٦٠ مليون عين .. وكل واحد عنده عينين وكل واحدفينا بيشوف. وكل واحدمسئول ومحدش يخاف. الاستغلال بنقاومه .. وأى شىء نستطيع أن نقاومه طالما كل واحد يعتبر نفسه مسئول عن نفسه .. ومسئول عن بيته ومسئول عن أولاده .. وفى نفس الوقت مسئول عن بيته الكبير .. مسئول عن وطنه . مسئول عن الانتصارات الكبيرة اللى حققتها الثورة » .

وبنفس اللغة المصرية يتحدث للبسطاء عن مسألة من المسائل الاقتصادية التى تعنى الشعب المصرى (مارس ١٩٦٦) .

« لو جينا آخر السنة وقلنا نقعد شهرين من غير رز وناكل مكرونة والصعايدة ياكلوا فريك .. يبقى نزود الخطة ٢٠مليون جنيه فى السنة الجاية اللى هى سنة ٦٧/٦٦ . ويبقى منقعدش آخر الموسم بتاع الرز افضل أسمع زن على ودانى مفيش رز .. والرز اختفى من البلد .. ومش فاهم ايه .. وبعدين النهارده ناس بيسمعوا الكلمة اللى انا باقولها دى فى الرز يخزنوا رز » .

من أجل تلك الروح المصرية أحبه الشعب المصرى حب تقديس ، وانتقل هذا الحب الى شعوب العالم لشخصه ، فقال دبلوماسى أمريكى كبير : « لو ظهر جمال عبد الناصر على شاشة التليفزيون فى الولايات المتحدة الأمريكية ثلاث مرات فى الأسبوع لاستطاع أن يضم الى صفة الشعب الامريكى كله » .

وفى كتاب توم ليتل نقرأ أن عبد الناصر الشاب « استطاع أن يحافظ على هدوء يشبه فى صفائه وجه البحر الساكن . لكن فكره ظل دائما مؤرقا بالتفكير فى غايته التحريرية العظمى ، كان ايجابيا يحاول الافادة من كل الدروس لمصلحة وطنه » .

وفى مقال نشره الصحفى الامريكى جورج كارى رئيس تحرير الديلى كلنتوينان عن لقاء أجراه مع عبد الناصر قال :

« تحدثت مع الرئيس جمال عبد الناصر .. وبالأحرى أصغيت اليه لأنه

فى الواقع هو الذى تكلم وخرجت وكلى اعتقاد بأننى قابلت أحد كبار رجال العصر الحديث ، رجلا قد رفعه التاريخ الى مصاف أبراهام لنكولن » .

فهل نستطيع أن نقول أن عبد الناصر كان يتمتع بتلك « القوة النفسية » التى جعلت شعبه يحبه حب تقديس ، وتبكى عليه شعوب العالم بكاء مرا أسودا يوم رحل .. وهل من التناقض أن السياسة والقداسة يجتمعان فى شخص واحد ؟

لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين السياسة والقداسة فى « الزعيم » المصرى .. ذلك ان سعة الحيلة والخبرة بطبائع الناس ادل على القداسة من قلة الحيلة وسذاجة الضمير .. لأن القديس الذى يعرف العالم صاحب فضل فى قداسته . أما القديس الذى لا يستطيع أن يعالج شئون العالم فانما القداسة عنده فضيلة اضطرار على حد تعبير الأستاذ العقاد رحمه الله . ذلك أن علماء التوحيد يقولون لنا ان المعجزة الكبرى لنبى من الانبياء هى المعجزة التى تطابق خلائق الامة لمبعوث فيها . فموسى بعث بالعصا الساحرة فى أمة السحر والكهانة ، وعيسى بعث بآية الشفاء فى أمة المصابين والضعفاء، ومحمد بعث بالقرآن فى أمة الفصاحة والبيان ، فلكل منهم معجزة تطابق أحوال قومه وتستمد الاقناع من معدنه واصله .

وكانت تلك « القوة النفسية » لديه هى ما احسسناها ونحن نراه ونصافحه حين زار مبنى مؤسسة الاهرام ، شاركنا هذا الاحساس كل الزملاء ، وهو ما وصفه الأديب الكاتب أحمد بهجت بالاحساس بالرهبة الذى يفسح منطقة للاحساس بالألفة .. فهو يتحدث مازحا لكل من يلقاه ، وتلك هى النفسية الآسرة التى تنبع من روح عبد الناصر المرحة .

ونذكر جميعا فى ذلك اليوم ، والأستاذ محمد حسنين هيكل يقدم اليه المحررين ، انه كان يعرف الكثيرين ، ويداعب الجميع بهذه الروح المصرية ، فها هو يسأل الشيخ محمود الكولى محرر الشئون الدينية عن « الجبة والقفطان » وكان يرتديهما زمان ، ولكنه يرتدى الان بدلة حديثة ، ويضحك كثيرا حينما يجيبه محرر الشئون الدينية : قلعتهم بقرار جمهورى يا أفندم !

ولا ننسى فى ذلك اليوم فكاهته مع توفيق الحكيم ، وهى فكاهة من ذلك النوع الذى تتمتع به الفكاهة المصرية حين تكون مؤنة تصلح لمساجلة الأصدقاء ، ويدور الحديث حينما يجتمع فى الأهرام حول الشائعات التى تطلق على بخل الحكيم ، وقديما اتفق الحكيم مع الأستاذ هيكل على قانون للبخل، اذا اختار الحكيم المكان لم يكن من حقه اختيار الطبق ، بيد انه فى الحالتين

سوف يتركك تدفع الحساب تكريما لك ، الا اذا كان هو الذى اختار المكان ولون الطعام وذهب وحده .

ويسأل عبد الناصر وهو يزور الكافتيريا :

ــ هل يعازم توفيق الحكيم ؟ ويجيب متحمسا أنه يعزم بالثلاثين شخصا كل يوم ثم يدفع الحساب .

ويضحك الجميع ، وحين تتصاعد الاعتراضات من السائرين معه بأن هذا لا يقع ولا يكون ، يقسم الحكيم ضاحكا أنه دفع جنيها صحيحا فى الكافتيريا منذ يومين ولم يزل يحس لذع الجنيه !.

استحق عبد الناصر الحب فى حياته وبعد مماته ، ذلك أنه تمتع بشخصية انسان مهيب محبـــوب فى مواقف الزعامة والنضال وفى مواقف المـــزاملة والمؤاخاة .

ونذكر هنا ما رواه رفيق نضاله الأستاذ محمد حسنين هيكل عن الأربع والعشرين ساعة الأخيرة وهو يبحث عن حل « يوقف نزيف الدم فى الأردن » كما كان يقول :

« كانت هناك جلسة بعد الظهر عاصفة ، فقد حضرها الملك حســـين لأول مرة .

« وكانت هذه الجلسة قد بدأت فى الواحدة بعـــد الظهر ، وانتهت فى الثالثة والنصف .

« وكنت فى قاعة الاجتماع قبل أن يدخل عبدالناصر ، وكان جوها متوترا .

« كان الملك حسين مع بعض ضباطه فى ركن من القاعة .

« وكان ياسر عرفات على مقعد فى صدرها يضبط أعصابه بالكاد .

« وكان الملك فيصل فى مقعده التقليدى فى هذه الاجتماعات ، وكان واضعا يده على خده يفكر .

« وتحدثت قليلا مع ياسر عرفات ، وكان على وشك أن ينفجر .. ودخل وقتها العقيد معمر القذافى يجلس الى جوار ياسر عرفات .

« وانتقلت الى حيث كان الملك فيصل جالسا ، اقطع عليه تفـــكيره واقول له :

« ألا تريد جلالتك أن تقوم بعملية نزع سلاح فى هذه القاعة ؟ » .

والتفت الملك فيصل الى يسألني عما أقصد ، قلت :

ــ ان الملك حسين يعلق مسدسا فى وسطه ، وياسر عرفات يعلق مسدسا فى وسطه ، ومعمر القذافى يعلق مسدسا فى وسطه .. والجو كله مشحون » ..

« وقلت ذلك وابتسمت .

وقال الملك فيصل :

« لا أعرف فى الحقيقة .. هل جئنا الى هنا لنتفاهم أو سنتقاتل ؟ » .

ثم استطرد الملك :

« ولكنى لا استطيع ان انزع سلاح أحد .. ربما يستطيع فخامة الرئيس .. هو وحده الذى يستطيع » .

وأشار الملك الى باب القاعة ، وكان الرئيس عبد الناصر يدخل منها فى تلك اللحظة ويتجه نحونا . وقال له الملك فيصل :

« فخامة الرئيس .. لا أريد أن أجلس وسط كل هذه المسدسات » .

وقال الرئيس ضاحكا من قلبه :

« لا عليك .. سوف أجلس أنا وسط هذه المسدسات وتفضل أنت فاجلس فى مكانى » .

وتفسير ذلك نجده لدى شهادات زعماء ومفكرين عالميين التقوا بعبد الناصر عن قرب ، وعرفوه من خلال فكره ، وأعجبوا بشخصه وأحسوا بما نحس .. نذكر من هؤلاء :

« بونوا ميشان » الكاتب الفرنسى المعروف الذى أجرى أحاديث عديدة مع مختلف الرؤساء والملوك العرب ، قال فى كتابه « الربيع العربى » الذى صدر سنة ١٩٥٩ عن دار « البان ميشال » الفرنسية :

« بين رجالات الدولة الذين التقيت بهم خلال حياتى ، جمال عبد الناصر .. هو ، دون أدنى شك أكثرهم بساطة وأكثرهم تواضعا . فى نظرته مسحة من الصدق والاحترام تجبر على الانجذاب والاستمالة اليه » ويختم الكاتب الفرنسى تعليقه بقوله :

« كنت أنتظر رؤية رجل سياسة يشبه الكثيرين من أمثاله واذا بى أمام رجل دولة قادر على صنع التاريخ .. وفى ضوء هذه الدلائل نعرف لماذا تحمل الجماهير العربية والاجنبية صور عبد الناصر وتشيد به ، نفهم لماذا صلى العالم كله من أجله وحزن وبكي ونكس الاعلام .. هذا هو الحب الحقيقى الذى شيده جمال عبد الناصر للشخصية المصرية .

وهنا يمكننا أن نفهم كلمات الأستاذ محمد حسنين هيكل :

« ان هناك انجازين بارزين فى دور عبد الناصر ، من وجهة نظر الحركة العامة للتاريخ :

أولهما : أنه وصل مصر بأمتها العربية .

ثانيهما : انه وصل أمته العربية بالعالم وبالعصر .

« هذا ، وبكل بساطة ، هو دوره ، وتحته تندرج كل التفاصيل ، وتتعدد معارك حربه التى لم تتوقف يوما قبل رحيله ، ولا أظنها سوف تتوقف بعد الرحيل » .

ذلك هو الدور ، وتلك هى الرسالة .. بدا عبد الناصر بالكشف عن معالم الشخصية المصرية ، وواصل النضال لاعادة البناء ، وكانت نتيجة النضال وثمرته على حد تعبير الاستاذ هيكل هى وصل مصر بأمتها العربية ، ثم وصل أمته العربية بالعالم وبالعصر . وتفصيل ذلك كما يقول جمال عبد الناصر فى حديثه مع بونوا ميشان : ؟

« لقد ولدت الثورة المصرية خارج الشعب وبعيدا عنه . وكان الشعب غارقا فى خضوع أعمى أسوأ بكثير من اليأس ، ولهذا السبب كان عملنا عملا طليعيا يستطيع كسر أبواب سجن الشعب ، وكان هدفنا أن يتجمل الشعب بنفسه مسئولياته . ولم نسيطر على الشعب بل سرنا نحوه قاطعين الحواجز التى كانت تفصلنا عنه الواحد تلو الاخر . بدأنا باسقاط الملك ، وهذا ضرورى لاعلان الجمهورية ثم قارعنا الاقطاع ، وذلك بداية الاصلاح الزراعى . ثم صفينا الاحزاب ، وهذه مرحلة ضرورية لتوحيد الافكار . عمل الجيش كمخرز الامة ، وبعد طريق طويل أصبحنا وجها لوجه مع الشعب . فسألناه اذا كان يؤيدنا ؟ وأجابنا بموجات عارمة من التهليل . وعرفنا جيدا حينئذ اننا حققنا ما كان يصبو اليه الشعب » .

وهنا نستطيع أن نقول ان الثورة الناصرية فى سنة ١٩٥٢ قد نجحت فى تحقيق ما عجزت الثورة العرابية عن تحقيقه ، وما عجزت عنه كذلك

ثورة ١٩١٩ . فنجاح الثورة الناصرية وفشل الثورتين الاخريين يرجع الى انهما لم تتمكنا من تحديد معالم الشخصية المصرية التى تاهت آنذاك وسط ضباب عوامل دولية ومحلية ، بينما كانت الثورة الناصرية فى البدء : كشفا للشخصية المصرية وتوكيد القيم البناءة فيها .. وهذه العوامل العالميــة والمحلية الجديدة ، وهذه القيادة الجديدة الواعية هى المسئولة عن تحديد معالم شخصية مصر الثورة .

لقد كتب جمال عبد الناصر كتابه الاول « فلسفة الثورة » قبل مؤتمــر باندونج ، ولكن المعلم العظيم يؤكد أن مصر الثورة ليست انعزالية أو سلبية، وليس فى نية قيادتها أن تحصر مصر داخل اطار المعاملة مع الدول العربية وفق النهج التقليدى الذى سارت عليه قيادتنا الوطنية السابقة ، كما أن المعلم المصرى العظيم يؤكد لنا أن هناك اتجاها نحو اخراج مصر من عزلتها وسلبيتها وربطها بما يدور حولها من أحداث عالمية .. فقد قال عبد الناصر فى فلسفة الثورة :

« ولقد مضى عهد العزلة . وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التى تخطط حدود الدول تفصل وتعزل . ولم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ، ليعلم من اين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره .. ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وما هو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب » . ما هو دورنا الايجابى فى هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟ ان القدر لا يهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء . ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وان هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، واتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا لا مجرد كلام ؟ أيمكن أن نتجاهل ان هناك قارة افريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد ؟ .

أيمكن أن نتجاهل ان هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ ؟ ..

ان الإستعمار هو القوة الكبرى التى تفرض على المنطقة العربية كلها حصارا قاتلا غير مرئى » .

عبد الناصر يدرك منذ البداية اذن أنه لابد من أن تخرج مصر من غزلتها التى فرضها الاستعمار عليها وعلى غيرها من الدول العربية ، وأن تقوم بدورها الايجابى فى العالم المضطرب حولها داخل الدائرة الافريقية والدائرة الاسيوية . ويحدد المعلم العظيم : ان الارتباط بهذه الدوائر العالمية الواسعة يجب أن ينبثق أولا من صميم مصالح الشعب المصرى ، ويتفق ثانيا مع مصالح الشعوب العربية والافريقية والاسيوية ويخدم ثالثا قضية البشرية . ومن ثم ، فقد سافر عبد الناصر الى باندونج ليتعرف على بقية القوى العاملة فى هذه الدوائر الاسيوية الافريقية التى سيرتبط بها ويتفاعل معها .

وذكرت يومها مجلة « ذى ريبورتر » الامريكية بتاريخ ١٩ مايو ١٩٥٥ أن أقطاب مؤتمر باندونج ثلاثة ، هم شواين لاى ونهرو وجمال عبد الناصر . والواقع ان شخصية عبد الناصر وموقفه وسلوكه هو الذى جعله فى النهاية دون أدنى شك أحد أقطاب هذا المؤتمر .

فقد ذكرت « الاسوشيتدبرس » فى ١٩ ابريل « ان التصفيق الذى قوبل به خطاب جمال عبد الناصر فى المؤتمر يدل على الاثر العميق الذى تركته شخصية الجندى المصرى الشاب فى نفوس أعضاء المؤتمر . وان جمال عبد الناصر أصبح مثل نهرو وشواين لاى موضع اكبر اهتمام فى المؤتمر » . وقد اعترف أقطاب مؤتمر باندونج بهذه الحقيقة ، فقال نهرو فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٥٥ فى أول خطاب له بعد عودته من باندونج فى خمسمائة رجل من أقطاب الهند فى حديقة حيدرأباد : « ان النجاح الذى أحرزناه فى مؤتمر باندونج يعتبر الى حد كبير جدا نجاحا شخصيا لرئيس وزراء مصر » . وفى مقال للاستاذ محمد حسنين هيكل نشر فى جريدة الاخبار (٤ مايو ١٩٥٥) عن العوامل التى أدت الى نجاح جمال عبد الناصر فى باندونج ، يذكر عدة أسباب لهذا النجاح ، وفى مقدمتها « أولا : انه لم يحاول أبدا أن يلعب دور السياسى الداهية ولا أن يضع على وجهه أقنعة مستعارة من نابليون و بسمارك أو تاليران ، لقد حاول أن يعبر عن نفسه وأن يقول ما يعتقد انه الحق ويقوله بوضوح ..

« ثانيا : ان جمال عبد الناصر لم ينس هدفه من المؤتمر ، فظل يذكر تماما ان هذا المؤتمر لشعوب افريقية وآسيا ، وانه ليس لاحد أن يخرجه من هذا النطاق » ..

فماذا قال عبد الناصر فى هذا المؤتمر ؟

ان عبد الناصر يعلن ان التعاون بين أعضاء الكتلة الافريقية والاسيوية يعتبر نقطة تحول نحو تحسين الموقف الدولى ، ويؤكد على احترام الاستقلال السياسى لكل دولة وعدم التدخل فى شئونها الداخلية ، ويهاجم الاستعمار ويعلن ان بقاءه لا يتفق مع العصر الحديث فى العالم ، فهو تجاهل للتقدم الانسانى ومقاومة لقوانين التطور ، كما انه من أسباب الاضطراب الذى يسود العالم فى عصرنا الحالى . ويضع أمام العالم شروطا خمسة لتحقيق السلام العالمى :

١ — تنظيم التسليح وتحديد القوات المسلحة وتخفيضها والقضاء على أسلحة الدمار الشامل وتحويل الاموال التى تنفق على التسليح لرفع مستوى معيشة الشعوب .

٢ — أن تصدر الامم المتحدة قراراتها على أساس ميثاقها . فلو راعت الهيئة ذلك لما وقع لشعب فلسطين ذلك الظلم الذى يعد عدوانا وحشيا أثيما على المبادىء الانسانية .

٣ — احترام الدول لالتزاماتها الدولية بمقتضى ميثاق الامم المتحدة وأعلان حقوق الانسان والقضاء على التفرقة العنصرية التى تعتبر اخلالا بهذه الالتزامات ، بل اخلالا بالعلاقات الودية بين الدول .

٤ — وضع حد للاساليب التى تتبعها الدول الكبرى للضغط السياسى على الدول الصغرى لتعمل الاخيرة لخدمة الاولى .

٥ — تصفية الاستعمار اذ أن بقاءه لا يتفق وسياسة السلم والتعاون بين الشعوب . ويتساءل عبد الناصر :

« على أى أساس يستطيع انسان أن يستسيغ ان اقطار شمال أفريقية التى ظلت قرونا مستقلة ومقرا للعلم والعرفان والحضارة العريقة ، تنحط مرتبتها الى حد أن تصبح مناطق لا تتمتع بالحكم الذاتى ؟ أتتفق هذه السياسة مع السلم والتعاون بين الشعوب ؟ » .

ويعلن عبد الناصر ان مصر التى ظلت أمدا طويلا خاضعة للسيطرة الاجنبية تقف الآن وقفة المدافع عن الحرية والرفاهية للشعوب كلما سنحت لها الفرصة ، وتؤيد مبدأ تقرير المصير لكافة الشعوب ، ويعلن تأييد مصر لهيئة الأمم المتحدة كمنظمة دولية فعالة لصيانة الأمن والسلام ، رغم أنها لم تقم بما يطابق حقوق الانسان لدول شمال أفريقيا وفلسطين .

وهكذا عرض عبد الناصر — كما يقول كارنجيا — بمنتهى الشجاعة على مؤتمر باندونج والعالم ، الصور الرئيسية الثلاث لسياسته الخارجية . وكانت الصورة الاولى تعهد عبد الناصر باسم بلاده أن تشن الحرب بكل ما لديها من طاقات ووسائل على الاستعمار والسيطرة الاجنبية ، وأن تكشف الاقنعة كلها التى قد يختفى الاستعمار وراءها ، أى محاربته فى عرينه .

ووعد — فى الصورة الثانية — ان تعمل بلاده من أجل السلام ، لان أجواءه وامكانياته تؤلف الفرصة الوحيدة للتقدم القومى .. وتحدث فى الصورة الثالثة — عن التعاون الدولى من أجل رفاهية الشعوب كلها ، ووصفه بأنه بات كلا واحدا غير مرئى يتطلب التعاون المشترك من الجميع لتحقيقه .

وفى سنة ١٩٦٤ ، يتحدث عبد الناصر الى مجلس الامة ، ليواصل الاجابة على التساؤل المطروح :

« لقد واجه الشعب المصرى الاحتلال البريطانى باصرار ، وتمكن بالمقاومة العنيدة من ارغامه على الجلاء فى يونيو سنة ١٩٥٦ ، ليعود الى ملاقاته غازيا فى أكتوبر من نفس السنة ، ويهزمه بالسلاح على ضفاف نفس القناة التى كانت قاعدة له .. ويفرض عليه التراجع مدحورا مهزوما ..

« يطرده مرتين من فوق أرضه فى نفس السنة .

« مرة بالمقاومة السلبية ، ومرة بايجابية الحرب الشاملة .

«ويدرك الشعب ان الوجود الاستعمارى على أرضه ، ليس هو مجرد القواعد العسكرية الظاهرة .. وانما القواعد الخفية أخطر وأضر ، فاذا هو بين الحربين ، حرب بالمقاومة السلبية التى انتهت بالجلاء ، وحرب بالنصر الكامل ، يؤمم شركة قناة السويس .. ركيزة الاستعمار الرأسمالى الاحتكارى ويؤكد سيادته عليها ملكية وادارة وانتفاعا .

وبينما نار المعركة مازالت تشتعل على الشواطىء المعرضة للغزو اذا إرادة الثورة الشعبية تصفى بقية قواعد الاستعمار الرأسمالى الاحتكارى فى الداخل ، وتقوم بتمصير جميع المصالح المملوكة لدول الاستعمار وفى مقدمتها الجزء الاكبر من البنوك وشركات التأمين وشركات التجارة الخارجية كلها ، وكلها أعصاب الاقتصاد الحساسة المسيطرة .

« وفوق ذلك يدرك الشعب فى نفس المرحلة ، اهمية وحدة الحــركة المعادية للاستعمار ، ويرى ضرورة خلق جبهة للحرية عريضـــة . فاذا ارادته الثورية من أكثر القوى فاعلية فى انجاح مؤتمر باندونج الذى كان ـــ عدا أهميته فى تاريخ التضامن الاسيوى الافريقى ـــ أعلى نداء جماعى ارتفع بمقاومة الاستعمار والتصدى له .

« ثم يمتد الطريق بعد نداء باندونج ، وبعد انتصـــار السويس ، يزداد طولا وعرضا ليمهد لاضخم زحف للحرية حدث فى أفريقيا ، ثم تجىء الدار البيضاء ، أول جهد افريقى منظم نذر نفسه لتحرير شعوب القارة ، ثم تلتقى ارادة افريقيا كلها على الحرية ـــ بغير بديل ـــ فى أديس أبابا .

« ولم تكن الحرية مجرد خلاص من قواعد الاستعمار ، وانما كانت أرحب من ذلك آفاقها ، تريد تحـــرير ضمائر الشعوب التى طال كبتها وتحرير أفكارها . وتحرير رأيها وتحرير ثقافاتها .

« ومشت دعوة الحياد الايجابى جنبـــا الى جنب مع دعوة مقـــاومة الاســـتعمار .

« وأكد عدم الانحياز قيمته الفعالة فى خدمة هدف السلام الذى لا تهدده الاحلاف العسكرية ولا القنابل الذرية ، ولا التمييز العنصرى .

« وفى المناداة بذلك كله ، وفى العمل الايجابى من أجله .. يقف الشعب المصرى طليعة بين الطلائع .

« لا استعمار على أرضه ، لا حلف يضغط عليه ، لا ارتباط يقيد ارادته ، لا تهديد يخيفه ، لا تشهير يخجله .

« لا شىء .. الا أرض حرة ، وشعب حر ، وارادة حرة .

والشعب والارض ، والارادة مع الانسانية كلها » .. صفوة القول اذن ـــ وفى اجمال مركز لدور عبد الناصر :

ـــ ان عبد الناصر وصل مصر بأمتها العربية .

ـــ وان عبد الناصر وصل أمته العربية بالعالم وبالعصر .

وفى ذلك كله مفتاح فهمنا لقول انطونى ايدن للوزراء البريطانيين ـــ وكانت الوزارة قررت القيام بعمليات حربية ضد مصر أثناء العدوان الثلاثى .

«اننا اذا لم نقض على جمال عبد الناصر اليوم فاننا لن نستطيع القضاء عليه أبدا» ان كل يوم يمضيه في الحكم يجعلنا نخسر في العالم بأجمعه :

تلك هي رؤيا الاستعمار العجوز : القضاء على الشخصية المصرية المنطلقة .. لان الانجليز قبل غيرهم يعلمون سر قوة الشخصية المصرية وديمومتها ، وصلتها بالحضارة الانسانية ..

ولم يقض على عبد الناصر .. وانتصر لمصر ..

ولم ينته دور عبد الناصر .. وانما يعيش دوره أبدا .. لان عبد الناصر أدرك منذ البداية أن الاستعمار هو العقبة الاساسية أمام تطور الشخصية المصرية نحو آفاقها المرموقة .. فقال منذ البداية :

« على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن بقائه » .

ونحن نتذكر ذلك كله .. نتذكر بدايات الانطلاق المعاصرة للشخصية المصرية .. والتأثير العالمى بعد عام ١٩٥٦ .. ففى عام ١٩٥٧ ذهب بعض الضباط الفرنسيين الشبان لمقابلة الجنرال ديجول فى منزله بالريف وقالوا له :

« لقد فكرنا أن فرنسا تحتاج لرجل قوى مثل عبد الناصر فى مصر » .

ويذكر الدبلوماسيون الغربيون أن الجنرال ديجول قد تشجع فى موقفه العدائى ازاء الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا مستفيدا من تجربة المناضل العظيم جمال عبد الناصر فى علاقاته مع الغرب .

هذا كله .. وشيء أكثر منه فى شخصية عبد الناصر دفع المؤرخ الانجليزى الكبير أرنولد توينبي الى القول :

« لقد استثار الرئيس عبد الناصر فى العرب طاقاتهم الكامنة ، فكان رد الفعل هو ذلك التجاوب العميق الرائع من المحيط الى الخليج ثم استثار جمال عبد الناصر طاقات الشعوب المتطلعة الى الحرية فكان رد الفعل قيام ثورات تحررية مشتعلة فى آسيا وأفريقيا واكبت سير القافلة إلى الاستقلال ، واستثار عبد الناصر الاستعمار فكان رد الفعل الوانا من العدوان .. ثم الاستسلام أمام القوى الصاعدة » ..

وذلك فى شخصية عبد الناصر ، ما توجزه موسوعة العالم المعاصر التى تصدر فى سويسرا أن « عبد الناصر يعشق وطنه ويعشق مصر « المثالية » » .

انه شغوف جدا بالاعلام . . هو عامل نشيط جدا أراد نفلته رجل الشعب البسيط العادل المزن الذى يأبى الا دراسة الوقائع »

* * *

وهكذا اجتمعت لعبد الناصر من مزاياه الشخصية من عوامل العصر فى حياته صفة الزعامة المنشودة لدى المصريين ، لان عبد الناصر فلاح من أمة الفلاحين ، وهو لذلك مثل فى عظمته المصرية ، يقوم على معارج المثل الاعلى لتلك الشخصية المصرية .

فهو لانه كان فلاحا من أبناء الارض الطيبة — أمة الفلاحين ، استطاع أن يجمع حوله أبناء مصر وكلهم من الفلاحين .

ولانه كان مصريا يؤمن بمصر العربية استطاع أن يصل مصر بأمتها العربية ، ويجمع حوله أبناء الوطن العربى ويستثير طاقاتهم الكامنة .

ولانه كان مصريا يؤمن بالسلام ، ويفهم طبيعة العصر استطاع أن يجمع ايمان العالم كله بزعامته للحرية وللسلام . فحوى زعامة عبد الناصر اذن تكمن فى تفنيده بالايجابية العملية لمزاعم الزاعمين بعزلة مصر وانها بصورة أو بأخرى عالم كامل وحده قائم بذاته ، وربما مكتف بذاته ان لم يكن مستغرقا فى ذاته أو ما قاله ما يرز وهو يتحدث عن مصر انها « كاقليم معزول بدرجة غير عادية وذى تركيب خاص » وكانت حقيقة مصر بجلاء كما وضحها عبد الناصر هى أن موقعها من العالم هو موقع القلب من الجسم أو العاصمة من الدولة وانها مجمع القارات ومفرق البحار ، وملتقى الشرق والغرب .

وان مصر — كما يقول الدكتور جمال حمدان — وان كانت جزيرة صحراوية بالموضع فانها بالموقع فى قلب الدنيا وعلى ناحية كل التيارات الحضارية والتاريخية والثقافية . انها برج مراقبة أو مرض يغطى العالم القديم برمته . ولهذا لم تملك أن تنعزل أبدا عن تيارات التاريخ وحركات الحضارة . والزعامة العالمية لعبد الناصر ، هى تحقيق للزعامة القديمة لمصر والتى كانت أصل الحضارة فى العالم كله بشهادة الاستاذين اليوت سميث وبرى وغيرهما ، قامت منذ ٦٠٠٠ سنة على يد « الجنس الاسمر » كما يسمون المصريين القدماء .

وقد أطلق سميث على هذه الحضارة حضارة الشمس والحجر ، وهى تسمية قد لا تعبر عنها تماما كما لاحظ هـ . ج . ويلز ، ولذا دعاها برى بالحضارة الآلية . وفحوى هذه النظرية أن الحضارة هى من خلق البيئة النيلية أكبر منها صنع الجنس الاسمر . فقد كان تفرد النيل دون كل انهار

العالم القديم بنظام فيضى معين هو الذى جعلها رائدة المدنية . فالنيل يقدم فى كل عام درسا عمليا فى أوليات الزراعة وهم من ثم أستاذ الفلاح ، والفلاح تلميذ مقلد الطبيعة ، وخير تلميذ هو ذلك العبقرى الذى لاحظ الفيضان وضبط النهر ، فكانت جائزته الملك والالوهية فالنيل اذن علم المصريين الزراعة والرى ، وتقاطرت بعد ذلك كل انجازات الحضارة .

واذا تكتل هذا الرأسمال الحضارى القديم لأبناء الشمس بدأ ينتشر الى الخارج مع التجارة والملاحة . وقد أطلق سميث على هذه العملية أولا هجرة الحضارة ، ولكن انتقال الحضارات ممكن بمجرد الاحتكاك ، ولذا عاد فدعاها انتشار الحضارة — وقد بدأ الانتشار أولا الى كل أركان الشرق القديم الهامة ابتداء من سومر وعيلام فى العراق الى كريت . ومن تلك المحطات ازداد انتشارا الى كل أركان العالم القديم ، ثم عبر من الاخير الى العالم الجديد . وبهذا انتهى سميث الى عالمية انتشار الحضارة المصرية ثم وحدة الحضارة العالمية لاشتقاقها من أصل واحد ، ثم استمراريتها مع انتقال المشعل الدائم من يد الى يد .

فهل يمكننا اذن أن نقول باطمئنان شديد .. ان عبد الناصر قد بعث الشخصية المصرية ، حين خرج من مصر لامته العربية .. ومن أمته العربية للعالم المعاصر بكل قيم الانسان ؟

الفصل الثالث

بناء الشخصية المصرية

« ان عقيدتى الثـابتة هى أن العلم على اختلاف نواحيه هـو الوسـيلة الحقيقيـة لتطـوير مجتمعنـا .

والواقع انه بـدون العلم تصـبح كل الاحـلام التى تجيش فى صدورنـا كسراب الصحراء وهو لا وجود له » .

جمال عبد الناصر ــ عيد العلم ١٩٥٩

هيأت المقادير لمصر منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طائفة من القادة النابهين ، اسهم كل بدوره فى بعث الشخصية المصرية من ضباب العواصف والاعاصير التى تكاتفت على محو معالمها من الوجود ، فكان مصطفى كامل نبيا وطنيا ، وداعية لا نظير له بين دعاة القضية المصرية ، وقاسم أمين مصلحا اجتماعيا ينادى بتحرير المرأة ويخرجها من سجنها الذي عاشت فيه قرونا عديدة ومحمد عبده مجاهدا دينيا واجتماعيا يكشف عن القيم النبيلة والنضالية للدين الاسلامى العظيم، وسعد زغلول قائدا للشعب المصرى بجميع عناصره فى ثورة ١٩١٩ ، ولطفى السيد الذى كانت وسيلته الوطنية تربية الشخصية المصرية على أخلاق الاستقلال والحرية ، وتهيئتها لممارستها فى الحياة المصرية .

ويمكن القول أن الثورة المصرية فى سنة ١٩٥٢ قد هيىء لها النجاح الذى حققته بفضل هذه الجهود مجتمعة ، والتى كان يتسم كل قائد من قواد مصر بسمة من سماتها ، فتركزت جميعها فى شخصية عبد الناصر الذى دعا لمصر فى العالم ، وقام ببناء متواصل وعظيم للشخصية المصرية ، وكلا الجهدين لازم لضرورة استمرار المسيرة الوطنية نحو الغاية المنشودة .

ولا غرو اذا وجدنا عبد الناصر من بعد ، يصرف اهتمامه الى نقد المجتمع المصرى بأفراده وهيئاته وجماعاته وأخلاقه وطباعه ، مرتكزا فى ذلك الى خلفية من التاريخ المصرى عبر القرون التى مرت بها الشخصية المصرية ، والدول الأجنبية التى خضعت لها مصر ، متحملة فى أثناء ذلك ظلما ترك فى نفوسهم أثرا لا يمكن أن يمحى وأخلاقا من الصعب على المصلحين فى هذه الأمة أن يستبدلوا بها أخلاقا أخرى .

من هذه الأخلاق الفاسدة التى ادخلت على الشخصية المصرية ما أطلق عليه لطفى السيد من قبل « عبادة البسالة » أو عبادة القوة ، والخوف من الحاكم فى أية صورة أو هيئة ، والشعور أحيانا بالضعف وبالذلة ، والقصور عن الاتيان برأى حر ، وهو الأمر الذى روج له المغرضون والموتورون من هذه الشخصية المصرية وأذكى الاستعمار الحديث ذلك الطبع الرذيل المدخول من عهود الظلم والاستبداد .

وعلى ذلك فمهمة الثائر المصرى مهمة عسيرة اذ عليه أن يزيل من الوجود المصرى تلك الجبال الراسخة من الذل والأشباح المخيفة من الجهل والميراث الضخم العتيد من العادات التى خلقها الخضوع للظلم .

وذلك ما أحس به جمال عبد الناصر منذ اللحظة الاولى ، فكان مدركا تمام الادراك أن « الاستيلاء على السلطة فى حد ذاته لا يعتبر ثورة أو بمعنى آخر أن تغيير اشخاص الحاكمين حتى ولو تم بطريق العنف لا يعتبر ثورة ما دام يقتصر على ابدال حاكم بحاكم ثم ابقاء الأوضاع والعلاقات الاجتماعية على ما هى عليه » .

وكان وضوح الرؤية المصرية للواقع المصرى أمام ثورة عبد الناصر هو أن يثبت للشعب فشل النظام القائم ، وأن تؤمن الجماهير بضرورة اسقاط هذا النظام وأن تؤمن بأن الثورة هى الطريق الوحيد . وهو الأمر الذى أشار اليه فى الميثاق الوطنى من أن الثورة تحتاج أن تسلح نفسها بقدرات ثلاث تستطيع بواسطتها أن تصمد لمعركة المصير التى تخوض غمارها وأن تنتزع النصر محققة أهدافها . وهذه القدرات الثلاث هى :

١ — الوعى القائم على الاقتناع العلمى النابع من الفكر المستنير والناتج من المناقشة الحرة التى تتمرد على سياط التعصب والارهاب .

٢ — الحركة السريعة الطليقة التى تستجيب للظروف المتغيرة التى يجابهها النضال على أن تلتزم بأهدافه وبمثله الأخلاقية .

٣ — الوضوح فى رؤية الأهداف ومتابعتها باستمرار .. وتجنب الانسياق الانفعالى الى الدروب الفرعية التى تبتعد بالنضال عن طريقه وتهدد جزءا كبيرا من طاقته .

وقد أدرك الكاتب الأمريكى « والتر وين » هذه الحقيقة فى الثورة الناصرية فاستوحى من الشعار الذى رفعته مع بداية الثورة عنوانا لكتابه **ارفع رأسك يا أخى** .. وقد قال فى هذا الكتاب :

« ان عهود الحكم الأجنبى التى توالت على مصر كانت تعمل على ان تفقد البلاد كرامتها وكاد ان يحقق هذا الهدف . ولذلك فان أول شىء سعى اليه عبد الناصر هو أن يحفظ لوطنه ومواطنيه كرامتهم . وكان شعاره الأول « ارفع رأسك يا أخى » وكان المفتاح الذى فتح به « ناصر » أبواب الحرية لينطلق فى طريقه الى المراحل الثورية فى برامجه السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وهو الأمر الذى أشاد به جورج فوشيه فى كتاب « كرامة مصر » حين قال :

« ان من يحلل شخصية عبد الناصر يرى فيه الخلاصة المركزة لروح الكرامة المصرية .. وان السبب الحقيقى للثورة المصرية يكمن فى كرامة شخصية جريحة وعزة وطنية مهينة .

كما أن أحاسيس الزعيم فى طفولته وشبابه عندما كان يطالع البؤس على وجوه أبناء الشعب من حوله .. وشعوره بالفوارق الطبقية العجيبة التى يقوم عليها مجتمع ما قبل الثورة .. كان لها أثر كبير فى تكوين شخصية الزعيم الذى لا هم له غير تحقيق المجتمع الذى ترفرف عليه الرفاهية والعدل » .

ترى هل من أجل ذلك كله أكد عبد الناصر فى الميثاق .

« ان الشعب المصرى فى يوم بدء ثورته المجيدة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، أدار ظهره نهائيا لكل الاعتبارات البالية التى كانت تجدد قواه الايجابية ، وداس بأقدامه على كل الرواسب المتخلفة من بقايا قرون الاستبداد والظلم ، وأسقط الى غير ما رجعة جميع السلبيات التى كانت تحت ارادته فى اعادة تشكيل حياته من جديد » .

كان على الثورة الناصرية أن تبدأ مرحلة بناء الشخصية المصرية ، وذلك بمواجهة السيطرة الداخلية المستغلة القائمة على تحالف الاقطاع والرأسمالية من ناحية والسيطرة الخارجية المعتدية المتمثلة فى الاستعمار الزابض على ضفاف قناة السويس المتمركز فى أقوى قواعده العسكرية فى الشرق الأوسط .

وكانوا يفرضون على محافظات القناة كلها حكمهم السافر ، لدرجة أنه لا يدخل فرد ، رسمى كان أو غير رسمى ، الى المنطقة بغير تفتيش يقوم به الجنود الانجليز .

« وكان الاحتلال البريطانى ينظر الى القاهرة بالاستعلاء يصم أذنيه عن نداءات الحرية المنبعثة من الشوارع باليأس ويغمز بطرف عين للقصور الحاكمة — مالكة الارض وما عليها — مطمئنا الى ارتباطها به ، وان تظاهرت بمسايرة الشوارع الصاخبة بنداءات الحرية » (١)

---

(١) خطاب عبد الناصر فى مجلس الامة يوم ٢٦ مارس ١٩٦٤ .

وكانت الشخصية المصرية ضائعة ، أو على حد تعبير عبد الناصر[1] ، ما تريده تراه يبتعد عنها .. وما ترفضه تجده يقترب منها ويضغط عليها ، يكاد يخنق أنفاسها وما كان ليسترد لو استطاع .

« الماضى وراءها يشحب ، والحاضر شك ، والمستقبل ضباب ، وتتدفع الجماهير غاضبة تبحث عن طريق للخلاص ، تفتش فى أعماق وجدانها الذاتى ، تستنجد بكل القيم النضالية والروحية المستقرة بضميرها ، تهيب بالعقل الواعى أن يسارع لنجدتها فى أزمتها العنيفة لكى تستطيع بالايجابية أن ترتفع على فورة الغضب وتحولها الى ارادة للثورة ..

كان المجتمع المصرى كله فريسة متناقضات تضغط عليه من الخارج وتتصادم فيه من الداخل ، وترجه حركتها رجا عنيفا يكاد يهدم كيانه ، وكان المجتمع يدور حول نفسه يبحث عن طريق ، وكل طريق أمامه يبدو مسدودا ويريد مخرجا ، وكل باب يصادفه يجده محصنا بأقفال الحديد ..

كذلك يقول عبدالناصر :

« لم يكن الشعب قد ترك نفسه لليأس واستسلم . كانت المقاومة ضد كل ذلك أقوى ما تكون وأشرف وأنبل ما تكون . كان الشعب المصرى يومها فى صورة عظيمة .. كأنها صورة الانسان البطل فى أعماق البحر يصارع اخطبوط الرهيب ويناضل لتحرير الحياة من أذرعه المتعددة » .

وانتصر الانسان وسادت ارادته فوق ضراوة الوحوش . ولكن كيف كانت الصورة العملية لانتصار الانسان المصرى يومها ؟

يجيب عبد الناصر : أن بعض الطلائع المنتمية بالولاء للشعب تحفزت تتلقى من الشعب نفسه ، سيدها ومعلمها العظيم ارادته .. ثم تضع فى خدمة هذه الارادة أول ما تملكه وآخر ما تملكه وهو حياته .. ثم تتحرك استجابة لندائه ، وكل دليلها الى حركتها ستة مبادىء أمسكت بها تشبثا وايمانا فوق أرض كل ما عليها يهتز ويترنح كأنه أطلال القاهرة التى أكلتها النيران .

ولم تكن الثورة الناصرية تملك فى ذلك الوقت العصيب من دليل العمل المصرى غير المبادىء والأهداف الستة التى وضعتها أسلوبا للعمل والتحرير الوطنى ولبناء الشخصية المصرية ، وهى :

---

(1) المرجع السابق .

١ ــ القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين .

٢ ــ القضاء على الاقطاع .

٣ ــ القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .

٤ ــ اقامة عدالة اجتماعية .

٥ ــ اقامة جيش وطنى قوى .

٦ ــ اقامة حياة ديموقراطية سليمة

ان هذه المبادىء الستة ، بشكلها العام وببساطتها ، وبرغم كل التحديات التى كانت تواجهها استطاعت أن تكون سلاحا للانسان المصرى ، يكفل له النصر فى صراعه مع وحوش الأعماق ، وفوق ذلك فلقد استطاعت أن تحقق له النصر قبل أن يضيق صدره ، وتفرغ الشخصية المصرية ما اختزنته فى رئتيها من أنفاس الثورة .

وفى الميثاق الوطنى يحدثنا عبد الناصر عن « الشعب العظيم ــ الذى كان ــ هو المعلم الأكبر الذى حمل على عاتقه ، فى أعقاب بدء العمل الثورى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ــ عمليتين تاريخيتين لهما آثارهما الضخمة :

١ ــ ان هذا الشعب المعلم راح أولا :

يطور المبادىء الستة ويحركها بالتجربة والممارسة ، وبالتفاعل الحى مع التاريخ القومى ، تأثيرا به وتأثيرا فيه ، نحو برنامج تفصيلى يفتح طريق الثورة الى أهدافها اللامتناهية .

٢ ــ ثم ان هذا الشعب المعلم راح ثانيا :

« يلقن طلائعه الثورية أسرار آماله الكبرى ، ويربطها دائما بهذه الامال، ويوسع دائرتها بأن يمنحها مع كل يوم عناصر جديدة قادرة على المشاركة فى صنع مستقبله .

ان هذا الشعب العظيم لم يكتف بأن يقوم بدور المعلم لطلائعه الثورية ، وانما هو فوق ذلك أقام من وعيه حفاظا عليها يحميها من شرور الغير ومن شرور النفس كذلك . ان الشعب لم يكتف بأن يهزم كل محاولة من أعدائه للنيل من طلائعه الثورية ، وانما قاوم كل الانحرافات التى قد تأتى من النسيان أو الغرور ، وظل دائما يرشد طلائعه الثورية الى طريق واجبها .

« ان ارادة الثورة لدى الشعب العربى المصرى ، والصدق الذى سلحت نفسها به ، حققت مقاييس جديدة للعمل الوطنى .

« لقد اكدت هذه الارادة صدقها بأنه لا يمكن أن تقوم عوائق أو قيود على امكانية التغيير الا احتياجات الجماهير ومطالبها العادلة » .

هــذه الامكانيات الهائلة حققت تجربة جديدة فى تاريخ الثورات » كما يقول عبد الناصر ، وان السنوات التى مضت حتى الان منذ يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ سوف تثبت أنها ذخيرة قيمة بالنسبة لنضال شعوب كثيرة .

ذلك أن هذه التجربة أثبتت « أن الشعوب المغلوبة على امرها قادرة على الثورة ، وأكثر من ذلك أنها قادرة على الثورة الشاملة .

« ان الشعب المصرى خاض خلال هذه التجربة غمار ثورات كثيرة تشابكت معاركها وتداخلت مراحلها . ثم استطاع فى حقبة قصيرة من الزمان أن يقهر جميع أعداء ثورته المتعددة ، وأن يخرج بقوة اندفاع متزايدة الى مرحلة الانطلاق نحو التقدم .

ان الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار استطاع أن يشل فاعليات طبقات من المجتمع القديم كانت قادرة على خداعه بالتظاهر باشتراكها معه فى ضرب الاستعمار ، بينما هى فى الواقع متصلة فى مصالحها به .

« ان حرب التحرير التى كان يمكن بالمفهوم التقليدى أن تحتاج الى وحدة جميع الطبقات فى الوطن حققت انتصارها فى الواقع حين حمت نفسها من اى ضربة خائنة فى الظهر .

ان الشعب المصرى خاض معركة التحرير ضد الاستعمار ، ولم تخدعه المظاهر ، وحرص طول المعركة على أن يعزل عن صفوفه كل الذين ترتبط مع الاستعمار مصالحهم فى مواصلة الاستغلال . وفى نفس الوقت ، فان الشعب المصرى وهو يجابه الثورة من أجل التطوير ، ويحـــاول تجميع المدخرات وتشجيعها وتحريكها فى اتجاه التنمية ، لم يغب عن باله ان الرأسمالية المحلية الكبيرة استطاعت فى ظروف ثورات وطنية عديدة أن تحول نتائج الثورة الى أرباح لها ، لأنها بامتلاكها للمدخرات القادرة على العمل فى التنمية تستطيع أن تحتل لنفسها مواقع الاحتكار التى تحصل منها على كل فوائد هذه التنمية .

« لقد عبر الشعب المصرى مراحل التطور بحيوية وشباب ، مجتازا المسافة الشاسعة من رواسب مجتمع إقطاعى ، بدأ فيه عصر الرأسمالية الى المرحلة التى بدأ فيها التحرك الاشتراكى بدون اراقة دماء .

« ان هذه الصور ، من الثورة الشاملة ، تكاد فى الواقع أن تكون سلسلة من الثورات ، وفى المنطق التقليدى حتى لحركات ذات طابع ثورى سبقت فى التاريخ ، فان هذه الثورات كان لابد لها أن تتم فى مراحل مستقلة يستجمع الجهد الوطنى قواه بعد كل مرحلة منها ليواجه المرحلة التالية » .

لكن العمل العظيم الذى تمكن الشعب المصرى من انجـازه بالثـورة الشاملة ذات الاتجاهات المتعددة ، كما يقول عبد الناصر ، يصبح حتى بمقاييس الثورات العالمية تجربة ثورية جديدة .

والتجربة الثورية الناصرية جديدة لانها اكتسبت من شخصية مصر ، ما طبعها بطابعها اذا قلنا مع القائلين بأن النيل بطبعه يدعو الى الاشتراكية والمجتمع التعاونى ، فمصر ، كما يقول الدكتور جمال حمـدان ، ليست أرض الطغيان « كما يتوهم البعض ، وان كان هذا قد طغى على أجزاء من تاريخها بعض الوقت . لا ، وليست « أرض النفاق . . هى ، وان كانت حدثت بعض الانحرافات الاجتماعية العابرة .

وليست وداعة الفلاح وصبره ضعة واستكانة ، كما أن نظامه وطاعته ليست خوفا وطمعا ، وانما هى جميعا خامة الحضارة والتقدم نشأها النيل ولكن شوهها الاقطاع . وقد بقى النيل وزال الاقطاع .

فالتجربة الثورية المصرية جديدة على الثورات لأنها مصرية تعكس جوهر مصر الأصيل لا من حيث حقيقة بيئتها الفيضية فحسب ، على حد تعبير الدكتور حمدان ، بل ومن حيث دورها ومكانها فى العالم . فاذا عددت الثورات الكبرى التى غيرت وجه عالمنا الحديث كانت بلا شك ثلاث : الفرنسـية والروسية وهذه المصرية . لكن لهذه شخصيتها المتفردة تاريخيا واجتماعيا . فالأولى كانت ثورة البورجوازية ضد الاقطاع ، ولكنها ظلت طبقية رأسمالية وتأخذ بالديموقراطية التقليدية الشكلية والملكية الفردية المطلقة . أما الثانية فأتت بمثابة ثورة على الاولى . ثورة البرولتاريا ضد البرجوازية ، وهى اذا كانت لا طبقية ، فانها أخذت بديكتاتورية الطبقة العاملة ونزعت الملكيـة الفردية لتفرض الشيوعية المطلقة . (١)

أما الثورة المصرية فكانت تاريخيا بمثابة ثورة بدورها على هذه الثورة الأخيرة بصورة مباشرة أو على الاثنين السابقتين بصورة غير مباشرة .

---

(١) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان .

فهى ثورة كل فئات الشعب العاملة ــ لا فئة واحدة ــ ضد كل من الاقطاع والبورجوازية على حد سواء لا على حدة . وهى لا طبقية تذيب الفروق بين الطبقات ولكنها لاتفرض كالثانية ــ ديكتاتورية أى طبقة ، وتأخذ بالديموقراطية الثورية لا التقليدية الأولى . وهى بعكس الأولى نفى للراسمالية ، ولكنها بعكس الثانية لا تنكر الملكية الفردية بل توسعها بعد أن تهذبها .

أو بمعنى آخر ، الثورة المصرية على حد تعبير الدكتور حمدان ، من حيث الشكل : الثورة المصرية كحدث تاريخى أتت ثورة بيضاء أو قل خضراء بلون الوادى ، بعكس الثورتين الاخيرتين. منحيث الموضوع : أتتالثورة المصرية ثورة الاشتراكية بالمعنى الدقيق ، حيث كانت الفرنسية ثورة الراسمالية والروسية ثورة الشيوعية . وشكلا وموضوعا : اذا كانت الفرنسية هى « التقرير » والشيوعية هى « النقيض » وكان كل منهما يجنح الى التطرف الى أقصى اليمين أو اليسار ، فان الثورة المصرية هى بحق « التركيب » الذى يجمع بين محاسن كل منهما دون أضـــداد ، أى منهما ، ولا تعرف التطرف بل تقف فى الوسط .

فشكلا وموضوعا اذن ، الثورة المصرية بنت رأى أصيل يعبر عن طبيعة المركب الفيضى منتعاونية كامنة واعتدال الحد الأوسط سليمة المجتمع المائى.

والجدول الآتى يلخص الانقلاب الذى أحدثته وتحدثه الثورة الاشتراكية فى توزيع الملكية الزراعية ، حيث يعطى التوزيع كما سيكون بعد اتمام تنفيذ قرارات يوليو عام ١٩٦١ . ومنه نرى أن نفس سفح هرم الملاك (٩٤٪) الذى كان يملك قبل الثورة ثلث الارض سيملك الآن نصفها ، وأن قمة الهرم القـــديمة (٥٪) التى كانت تملك ثلثى الارض ستملك الآن نصفها فقط . وبهذا سوف يكون قد انتقل نحو ١٣٪ من الارض الى نحو ربع مليون اسرة جديدة تضم أكثر من مليون نسمة (١) .

---

(١) انظر الدكتور جمال حمدان : شخصية مصر .

فئة الملكية	عدد الملاك بالألف	٪	المساحة المملوكة بالألف	٪
— ٥	٢٩٢٠	٩٤,٧	٣٠٤٠	٥٠,٦
٥ — ١٠	٧٩	٢,٥	٥٣٠	٨,٨
١٠ — ٥٠	٦٩	٢,٢	١٣٠٠	٢١,٦
٥٠ — ١٠٠	١١	٠,٣	٦٣٠	١٠,٥
١٠٠ — ٢٠٠	٥	٠,١	٥٠٠	٨,٣
— ٢٠٠	—	—	—	—
المجموع	٣٠٨٤	١٠٠,٠	٦٠٠٠	١٠٠,٠

وقد تحقق هذا العمل العظيم ، كما يقول عبد الناصر فى الميثاق ، بفضل عدة ضمانات تمكن النضال الشعبى من توفيرها :

أولا — ارادة تغيير ثورى ترفض أى قيد أو حد لحقوق الجماهير ومطالبها

ثانيا — طليعة ثورية مكنتها ارادة التغيير الثورى من سلطة الدولة لتحويلها من خدمة المصالح القائمة الى خدمة المصالح صاحبة الحق الطبيعى والشرعى وهى مصالح الجماهير .

ثالثا — وعى عميق بالتاريخ وأثره على الانسان المعاصر من ناحية ، ومن ناحية أخرى لقدرة هذا الانسان بدوره على التأثير فى التاريخ .

رابعا — فكر مفتوح لكل التجارب الانسانية ، يأخذ منها ويعطيها ، لا يصدها عنه بالتعقيد .

خامسا — ايمان لا يتزعزع بالله ، وبرسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى الى الانسانية فى كل زمان ومكان .

واعتمد عبد الناصر فى بنائه للشخصية المصرية على أهم سلاح حتمت الضرورة استخدامه وهو القضاء على التخلف الرهيب الجاثم فوق صدر مصر ، وذلك بدحر الاقطاع والراسمالية المستغلة معا ، وهى عملية كانت تقتضى كذلك كسر شوكة الاستعمار الذى ينبع من تحالف الاقطاع والراسمالية فى كنفه .

.. ويتضح من الجدول السابق أن ملكية الجزء الاكبر والاخصب من الارض الزراعية كانت فى يد العـــدد القليل من الملاك الكبار ، الى جانب مساحات اخرى شاسعة تملكها الشركات الزراعية المملوكة للأجانب .. وان حاولت اخفاء هويتها الحقيقية وراء واجهات مصرية .

وبمقتضى القوانين الاشتراكية التى أصدرها عبد الناصر ، وبينها قانون الاصلاح الزراعى فلقد وصلت الارض التى تم الاستيلاء عليها لتوزيعها لصالح الفلاحين حتى سنة ١٩٦٤ مساحة ٩٤٤ر٤٥٧ فدانا .

وفوق اوضـــاع الملكية كانت الظروف الاقتصادية على الارض الزراعية لا تسمح باستغلال مثمر على الأرض الخارجة عن ملكية الاقطاعيين .. فلقد كان اقتصاد هـــذه الملكيات غير الاقطاعية ضعيفا بسبب حاجتها الى التمويل المنظم والخبرة الفنية .

وقد تمكن عبد الناصر بتحديد ايجار الأرض الزراعية ، الذى كان جزءاً من الاصلاح الزراعى ، وبتدعيم التعاون واتاحة التمويل المعفى من الفوائد أمامه ، وبالاتجاه الى التجميع الزراعى على أوسع نطاق .. أن يحدث تحولا فى ظروف انتاجية الارض الزراعية يضاف الى التحول الذى طرأ على ملكيتها .

ولقد ارتفع متوسط دخل الاسر التى استفادت بالارض الموزعة عليها من املاك الاقطاعيين القدامى ، من ٢٧ جنيهـــا فى الســـنة قبل التمليك الى ١٥٠ جنيهـــا فى السنة بعده — وتبلغ جملة الزيادة فى دخول المنتفعين من توزيع الارض التى تم توزيعها ٢٥ مليون جنيه فى السنة راحت تؤدى دورها فى رفع مستوى حياة الملاك الجدد بالحق .

وكذلك حقق قانون تحديد الايجارات أثرا يزيد عن ذلك ، فلقد ارتفع دخل الفدان الواحد بالنسبة للمستأجر من ٩ جنيهات الى ٢٧ جنيها سنويا ، وتقدر الزيادة فى مجموع دخول المستأجرين فى ظل قانون تحديد الايجارات بمبلغ ٥٦ مليون جنيه كل سنة .

ومن تأثير ذلك تراخت قبضة الاقطاع على الريف المصرى فى مقابل فاعلية متزايدة كل يوم لجماهير الفلاحين المنظمة اقتصاديا كما قال عبد الناصر — فى «اطار التعاون ، والمنظمة سياسيا داخل وحدات الاتحاد الاشتراكى» .

وكانت رؤيا عبـــد الناصر فى بناء الشخصية المصرية اذن مســـتوحاة ومستلهمة من واقع الارض المصرية ومن واقع الفلاح المصرى ، نتلمس هذه الرؤيا المصرية فى أحاديثه وخطاباته . فها هو يقول لاعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية :

« كنا بنطالب بتحديد الملكية وتوزيع الاراضى على الفلاحين على أساس ان هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تحرر الفلاح الذى نشأ فى الارض ملازم للأرض والذى اعتبر سلعة فى الارض عبد الارض ملك للمالك ملك للاقطاعى.

« هم كانو بينظروا للأمر نظرة أخــرى كانوا بيقولوا اذا كنتم عاوزين تحددوا الملكية ، طيب ماتفكرا فى أسلوب آخر فكروا فى الضرائب التصاعدية والضرائب التصاعدية قد تساعدكم فى رفع دخل الخزانة وتساعد فى رفع ميزانية البلاد .

« وكان مفهوم بيختلف عن مفهوم .. احنا كنا بنقول ان احنا مش عايزين فلوس للخزانة ولكنا نريد أن نحرر الانسان .. هم ماكانوش بيفهموا معنى تحرير الانسان والكلام اللى احنا بنقوله بيعتبروه كلام شعارات وكلام من غير ناتج ولا عائد . لكن الناتج والعائد ممكن يجى من الضرائب التصاعدية وعلى هذا الاساس لم نستطيع أن نتفق .. ما اتفقناش أبدا .. هم كانوا بيفكروا بعقلية ، واحنا بنفكر بعقلية احنا كنا بنقول للفلاح أن يتملك حتى يكون حر ويستطيع أنه يقول أيوه ، أو لأ طالما هو يتملك الأرض يشعربحرية .. والحرية مش معناها بأى حال من الاحوال برلمان وقبة برلمان وشعارات وديمقراطية ولكن الحرية فى حرية الفرد اذا استطاع الفرد أنه يقول لأسيبقى حر .. لكن الفرد اللى ملازم للأرض واللى ملازم للاقطاع واللى بيشــتغل فى الارض مع الاقطاعى زيه زى البهايم اللى موجودة عنده لا يمكن بأى حال من الاحوال أن يشــعر بالحرية ولا يمكن الا أن يكون تابع للاقطاعى وتابع لصاحب الأرض يسير وفق هوى صاحب الأرض وليست لارادته أى قيمة».

ومن جهة أخرى ، أدركت المصالح الرأسمالية المتحكمة فى الوطن ، منذ اليوم الاول أنهــا لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الحكم الذى وضعته الجماهير الثورية فى قيادة التغيير الذى بدأ مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢

لكن الرأسمالية المتحكمة تصــورت أنها تستطيع تعزيز مواقعها الفعلية وزيادة تركيز احتكارها للثروة من احساسها برغبة الثورة فى توسيع قاعدة الانتاج ولم تدرك هذه المصالح أى ثورة تستحق هذه الصفة المجيدة يتعين عليها أن تسأل نفسها دائما : زيادة الانتاج لمن ؟

يقول جمال عبد الناصر « ان الارادة الشعبية الثورية بدأت تجيب على هذا السؤال عمليا بالاتجاه الى اقامة وحدات انتاج قوية يملكها الشعب ، نواة لقطاع عام ما لبث أن عزز نفسه بالسيطرة الكاملة على المال ، متمثلا فى البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية التى جرى تأميمها ونقلهـا

الى الملكية العامة .. ثم اتباعها بقرارات يوليو الاشتراكية سنة ١٩٦١ التى ضمنت الملكية العامة للجزء الاكبر من وسائل الانتاج .. خصوصا فى المجال الصناعى ..

« ثم رسمت الحدود الواضحة للملكية العامة ، بحيث تشمل الهياكل الرئيسية للانتاج ، كالسكك الحديدية والطرق والموانى والمطارات وطاقات القوى المحركة ووسائل النقل البرى والبحرى والجوى ، وبعدذلك الصناعات الثقيلة والمتوسطة والتعدينية وصناعات البناء ، والجزء المؤثر من الصناعات الاستهلاكية .. بما لا يسمح بالاستغلال وارتبط بذلك تحقيق اشراف الشعب الكامل على التجارة الخارجية وكسر أى احتكار فى التجارة الداخلية، مع فتح مجالها واسعا فسيحا للنشاط الخاص .

وبذلك فان الاقطاع التقليدى — كما يقول عبد الناصر — الذى أراد أن يهرب الى المظهر العصرى للاستغلال الراسمالى ، قد تهاوى من جميع أركانه وتداعى خصوصا بعد أن فقد سند المصالح الخارجية شريكته فىنهب ثروة الشعب وجهده » .

وفى مواجهة الاستغلال والاستبداد أو الذى كان نتيجة مجتمعة للبناء المتصدع ، كان لا بد لاعادة بناء الشخصية المصرية من اقامة عدالة اجتماعية ..

ذلك ان معاناة التجربة قد أثبتت — كما يقول عبد الناصر — أن العدالة الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق الا على دعامتين من الكفاية والعدل .

« احداهما لا تستطيع أن تصل الى هدف بمفردها ، بل ان احداهما — من غير الاخرى — تسير فى اتجاه معاكس للهدف .

الكفاية ، أى زيادة الانتاج ، بغير عدل تعنى المزيد من احتكار الثورة .

والعدل ، أى توزيع الدخل القومى بغير زيادة فى طاقته لا تنتهى الى غير توزيع الفقر والبؤس .

وانما كلاهما معا ، الكفاية والعدل ، يبدا بيد يصل الى غايته ».ومنأجل تحقيق ذلك كله عملت الثورة المصرية على تحقيق النمو الاقتصادى عن طريق تنفيذ المشروعات المختلفة التى عطلتها الرجعية فى العهود الماضية . ومن أجل ذلك يمكن القول أن تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية فى بناء الشخصية المصرية المعاصرة قد تضمن منذ اليوم الاول للثورة هدفين رئيسيين :

أولهما ـ التنمية الاقتصادية ـ أو زيادة الدخل القومى .

ثانيهما ـ عدالة توزيع هذا الدخل بين فئات الشعب المختلفة .

وقد تحددت هذه الاهداف نفسها كنتيجة للظروف الموضوعية التى كانت تعوق نمو الشخصية المصرية وصولا بها الى العصر ، فالوضع الاقتصادى الذى كان قائما عند حدوث الثورة كان يتصف بالصفات الآتية :

ـ ان الدخل القومى فى مصر بالنسبة للفرد الواحد يقل كثيرا عن العديد من الدول المتقدمة أو حتى عن الدخل فى المناطق المجاورة .

ـ اعتماد الاقتصاد المصرى اعتمادا رئيسيا على الزراعة التى وصلت الى مرحلة من الركود وعدم التقدم .

ـ ان معدل النمو الاقتصادى كانمنخفضا اذا ما قورن بمعدل نمو السكان ، وبمعنى آخر فان متوسط دخل الفرد كان يميل الى الانخفاض سنة بعد أخرى .

ـ انه على الرغم من أن متوسط الدخل للفرد فى مصر كان منخفضا ، فان توزيع الدخل كان يتصف بتركيز شديد للجزء الاكبر من الدخل فى يد عدد قليل من الافراد .

وسيادة مستوى معيشة منخفض جدا بين الغالبية الكبرى للشعب :

ـ ان الرأسمالية فى مصر فى هذه المرحلة اتسمت بسمات تجعلها أعجز من أن تقوم بعملية التنمية المنشودة ، فقد كان النشاط المالى والتجارى فى البلاد خاضعا تماما للاشراف الاحتكارى الاجنبى أو لبعض الافراد المتمصرين الذين يهدفون الى الحصول على اكبر ربح ممكن فى أقل فترة تاريخية ممكنة . وكان جزء كبير من أرباح الاستثمارات الاجنبية يرحل الى الخارج دون اعادة استثماره فيما يزيد الثروة القومية والقدرة الانتاجية للبلاد . ورغم ذلك فقدكانت هذه الصناعات تتمتع بالحماية الجمركية العالية التى تؤدى الى القاء عبء متزايد على المستهلكين وذلك فى سبيل تحقيق أرباح سريعة وكبيرة لعدد قليل من المغامرين .

ـ من جهة أخرى زادت حدة الصراع الاجتماعى فى الداخل بين الفئات المحدودة من المالكين التى يسندها الاستعمار من جانب وبين باقى طبقات وفئات الشعب من الجانب الآخر .

وفى مواجهة هـذه التحديات الداخلية اتسمت الثورة المصرية بسمات الأرض الطيبـة وكل خصائصها الأصيلة ، فلم تـكن ثورة طبقية بالمعنى التقليدى ، ومن أجل ذلك أعلن عبد الناصر عدم السماح لطبقة بأن تطغى على طبقة أخرى وبتطهير جهـاز الحكم من سيطرة رأس المـال بل وعزله بالفعل عن استخدام نفوذه التقليدى على الدولة . ومن هنا تميزت الثورة الناصرية بحرية الحركة فى العمل . وكان العمل أمام عبد الناصر والنظام الذى أقامه عملا تاريخيا يسـتهدف فى المحل الاول استكمال الاستقلال عن التبعية الاستعمارية — سياسيا واقتصاديا وثقافيا وصـولا الى الجوهر الحقيقى للشخصية المصرية . ثم البنـاء العصرى لهذه الشخصية المصرية عن طريق تنمية الانتاج والدخل القومى لكفالة حياة تتصف بالرفاهية لمجموع سكانه وتوزيع هذا الدخل توزيعا عادلا بين فئات الشعب المختلفة . وقـد حتمت الظروف الموضـوعية القائمة على الثورة المصرية أن يكون الحـل الاشتراكى هو الحل الوحيد الذى يسمح باجراء التنمية المنشودة ، ومن اجل وضع هذا الحل موضع التنفيذ اتجه عبد الناصر الى اتخاذ الخطوات الجريئة المبنية على الدراسة الموضوعية لقوى التغيير الاجتماعى فى مصر ، وصولا الى تحرير الشخصية المصرية اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا .

وقد استمدت النظرية الثورية المصريه خصائصها من الخصائص الاصيلة لشخصية مصر ، ولكنها فى نفس الوقت انفتحت على الفكر العالمى وخاصة الفكر الاشـتراكى ، فهى وان تأثرت ببعض الاسس الرئيسـية فى الفكر الماركسى والفكر الاشتراكى العالمى ، رفضت أن تتبنى فى نفس الوقت بعض نواحى هذا الفكر .

وذلك ما أكده عبد الناصر فى خطاباته وهو يرسم طريق المستقبل أذ يقول فى نوفمبر ١٩٥٨ :

« ان بناء هـذا المجتمع ليس مهمة سهلة .. ذلك لاننا لا نبنى المجتمع الجديد فقط ، وانما نضع تصميم هذا المجتمع بأنفسنا قبل أن نبنيه ، اذ أن ظروفنا تختلف عن ظروف غيرنا ، ولا يمكننا أن ننقل تجربة مجتمع آخـر ، فان كل مجتمع يصنع تطوره والنظام الذى يلائمه ... فاذا أخذنا أى نظام ونقلناه لنطبقه فى مجتمعنا وتجاهلنا فى هـذا طبيعة هذا المجتمع والعوامل المتباينة فى هذا المجتمع ، لمـا استطعنا أن نحقق المجتمع الذى يلائم شعبنا .

اننا مطالبون بأن ندرس تجارب الآخرين حتى نستطيع أن نستفيد منها ، ولكننا لا نستطيع بأى حال من الاحوال أن ننقلها ، ولهذا فاننا حين نقول :

اننا نبنى هذا المجتمع الجديد ، فاننا لا نبنى فقط ولكننا نصمم أيضا ، وهذا التصميم يتطور ويتشكل مع تطور المجتمع ومع حاجاته ومع طبيعته .. » .

ومن أجل ذلك قبلت النظرية الثورية المصرية من الفكر الاشتراكى العالمى ، الايمان بالتطور ، وان التطور الاجتماعى تحكمه قوانين علمية معينة يمكن استخلاصها من دراسة تطور النظم الاجتماعية المختلفة ، وان هذا التطور لا يحدث نتيجة لدافع خارجى أو لعوامل غير منظورة وانما يحدث لان النظام الاجتماعى القائم لم يعد قادرا على حل المتناقضات التى تنشأ بين قوى الانتاج من جانب وبين العلاقات الانتاجية القائمة من الجانب الآخر . كما قبلت من الفكر الاشتراكى العالمى المبدأ القائل بأن حركة الجماهير فى صراعها من أجل الحياة هى الوسيلة التى يتم بها هذا التغيير وتبرزها هذه المتناقضات . وان حل متناقضات المجتمع الرأسمالى لا تتم الا عن طريق الملكية العامة لأدوات الانتاج والتوزيع على أساس من المشاركة فى الانتاج والتخطيط الشامل والسيطرة السياسية للقوى صاحبة المصلحة فى التغيير الاجتماعى .

واختلفت النظرية المصرية مع غيرها فى النظرة الى نوع القوى الشعبية التى لا بد وان يكون لها السيطرة السياسية وكيفية تنظيم هذه القوى . فبينما تذهب النظرية الماركسية الى ضرورة ان تكون القيادة فى أى تنظيم الحكم هى الطبقة العاملة الصناعية المنظمة فى شكل حزب واحد . فان النظرية المصرية تنظم كافة الطبقات صاحبة المصلحة فى اجراء التغيير الاجتماعى والاقتصادى فى تنظيم سياسى واحد يسمح بتفاعلها وتذويب الفروق بينها .

كما اختلفت النظرية المصرية حول الموقف من الدين ، مستلهمة طبيعة الشخصية المصرية عبر التاريخ ، فالماركسية باعتبارها نظرية مادية ترفض الدين أساسا وتنظر اليه باعتباره « مخدرا » يعوق التفكير العلمى ومن ثم تطور المجتمع . ولكن النظرية المصرية ترى أن الدين طبقا لايمان الشعب وتجاربه هو أحد أساسيات المجتمع البشرى . وان محاولة استخدام الدين أحيانا ضد طبيعته السمحة وجوهره التقدمى بواسطة القوى الرجعية لاعاقة التطور لا يعنى تغيير النظرة الى الدين وانما يفرض على القوى الثورية ضرورة التصدى لهذه الر. مية .

النظرية المصرية اذن ، اتسمت بسمات مكتسبة من طبيعة شخصيتها المصرية ، وهى لذلك قضت على الاقطاع ، وقضت على الاستغلال وانهت الاحتكار ، وأنشأت مجتمعا تسوده الكفاية والعدل ويسهم كل فرد فى اقامة كيان المجتمع العصرى والمحافظة عليه ، وفى ذلك يقول عبد الناصر :

« نحن فى ثورتنا الاجتماعية نسير كما كنا سائرين فى ثورتنا السياسية مرحلة مرحلة : فى أول الثورة فى سنة ١٩٥٢ كنا نقول : هدفنا القضاء على الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى ، وبعد ذلك تطورنا وبدأنا نقول : القضاء على الاستغلال كما نقول : القضاء على السيطرة المعتدية من الداخل ، فابتدأنا نحقق هدفا رئيسيا من أهداف الثورة ، وهو القضاء على الاقطاع والقضاء على سيطرة رأس المال على الحكم ، وابتدأنا نقول : اننا نهدف الى اقامة مجتمع اشتراكى تعاونى متحرر من الاستغلال السياسى والاستغلال الاقتصادى والاستغلال الاجتماعى » . ومن أجل ذلك اهتم عبدالناصر بتهذيب المسيرة الثورية لتحرير الفلاح المصرى فتضمنت القرارات الاشتراكية سنة ١٩٦١ تعديل بعض أحكام قانون الاصلاح الزراعى ، ونص التعديل على أنه لا يجوز لاى فرد أن يمتلك من الاراضى أكثر من مائة فدان ، ويعتبر فى حكم الاراضى الزراعية ما يملكه الافراد من الاراضى البور والاراضى الصحراوية ، وعلى أن تستولى الحكومة على ما جاوز الحد الاقصى الذى يستبقيه ، على أن يكون لمن استولت الحكومة على أرضه تنفيذا لأحكام هذا القانون التعويض المنصوص عليه فى القانون ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ وان يؤدى التعويض سندات اسمية على الدولة لمدة خمس عشرة سنة وبفائدة ٤٪ سنويا من تاريخ الاستيلاء ، وفى الوقت نفسه لايجوز لاى شخص هو وزوجته وأولاده القصر أن يحوز بطريق الايجار أو وضع اليد أو بأى طريقة اخرى من الاراضى الزراعية وما فى حكمها غير المملوكة لهم مساحة تزيد عن خمسين فدانا .

كما لا تجوز الوكالة او استغلال الاراضى الزراعية وما فى حكمها فيما يزيد عن هذا القدر ، ويستنزل من هذا القدر بمقدار ما يكون الشخص واضعا اليد عليه باعتباره مالكا . وبذلك أجهز عبد الناصر على معقل من معاقل الاقطاع ، وأحال الكثيرين من ذوى الجلاليب الزرق « المعدمين » الى ملاك .

وهكذا يمكن القول أن التحول الاشتراكى فى مصر جاء امتدادا للثورة الناصرية التى بدأت فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى قضت على سيطرة الاستعمار والاقطاع وفتحت بذلك الطريق لان تبنى الشخصية المصرية من جديد فى ظل الاشتراكية دون حدوث ثورة دموية .

فكان القضاء على الاقطاع وتوزيع الأرض على الفلاحين وباستثناء مديرية التجرير التى تملكها الدولة لم تلجأ الى تأميم الارض الزراعية أو تكوين التعاونيات وانما ملكت الارض للفلاحين مع الاهتمام بتشجيع التعاون

والتجميع الزراعى ، واجراء التجارب العلمية لتطوير الزراعة مع المحافظة على قاعدة الملكية الفردية فى هذا القطاع .

والملمح الثانى من ملامح التجربة المصرية هو وجود قطاع عـــام كبير يسيطر سيطرة كاملة على البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية . ويشارك فى تجارة التجزئة بنسبة هامة . وقـــد أدى هـــذا بجانب طبيعة التحول غير الدموى الى الاشتراكية امكانية الاستفادة من الفنيين من بين طبقات الأمة المختلفة دون أى اسراف أو تفريط فى ادارة المشروعات التى يتكون منها القطاع العام وتسييرها .

الى جانب القطاع العام لم يزل فى مصر قطاع خاص نشط فى مجال تجارة التجزئة وفى الزراعة وفى بعض نواحى النشاط الاخرى . ويعمل هذا القطاع الخاص تحت اشراف القطاع العام وفى حدود القوانين واللوائح التى يسنها، والتى تحـــدد الاجور وساعات العمـــل وحقوق العاملين وغير ذلك من التشريعات حتى تحد من القدرة الاستغلالية للقطاع الخاص .

كما اتسمت النظرية المصرية بوجود تخطيط شامل للنشاط الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ، وهو الامر الذى نشأ قبل اتمام الانتقال الى الاشتراكية .. ولكن تنفيذ الخطة استدعى اتمام التحول الىالنظام الاشتراكى . فالخطة القومية تهدف الى تعبئة كافة الموارد القومية لزيادة قدرة المجتمع الانتاجية وبالتالى زيادة الدخل القومى ومحاولة مضاعفته مرة كل عشر سنوات — وذلك عن طريق التصـــنيع السريع وزياة انتـــاج الارض الزراعية وزيادة المساحة المنزرعة من الارض .

كما اتسمت النظرية المصرية بتجميع قوى الشعب العـــاملة فى الاتحاد الاشتراكى الذى ينظم حركتها ويعتبر السلطة السياسية العليا فى البلاد ، وتمثيل هـــذه القوى بواسطة مجالس شعبية لهـــا حق محاسبة الاجهزة التنفيذية فى كافة مستوياتها ، وتتكون من ٥٠ ٪ على الاقل من ممثلى العمال والفلاحين . وكان الملمح الاساسى المستمد من طبيعة الشخصية المصرية هو الايمان بالدين والروحانيات كما سبق القول .

وبعد ذلك كله وفوقه ، فهناك معجزة الانسان فى هذا العصر الذى نعيش فيه — على حد تعبير عبد الناصر — السد العالى الذى يقف فى الوسط ما بين ثورة الزراعة وثورة الصناعة ، يمد تأثيره الى الاثنين معا ، الى الزراعة بالأرض الجديدة التى تصل الى مليون فدان ، والى الصناعة بطاقة الكهرباء التى تزيد عن عشرة مليار كيلووات ساعة ، والسد العالى معجزة الانسان

فى هذا العصر حقا . . لاننا اذا ماالتفتنا الى مصر القديمة بصورتها الفرعونية كما يقول الدكتور جمال حمدان : فستجبهنا هذه الملامح الى حد نادر المثال . فقد عد فرعون ضلعا أساسيا فى مثلث الانتاج الى جانب الضلعين الطبيعيين المـــاء والشمس (١) ، وأصبحت العبقرية الضلع الثالث فى مثلث الحضارة الى جانب الضلعين الاخيرين الحاجة والامكانية (٢) .

وليس صدفة بعد هذا أن كلا من هذه الاطراف الثلاثة قد عبدوا الله . فمن ناحية كانت الديانة الميثولوجيا المصرية القديمة تعطى مكانا بارزا لكل من النيل (حابى) . والشمس « رع » كآلهة بينما ــ للمقارنة الدالة ــ لم يكن للرياح الشـــمالية أو القمر أهمية ذات بال . ومن ناحية أخرى ، اذا كان فرعون قد تحول الى الملك ــ الاله ، فذلك أساسا بصفته ضابط النهر ، بصفته الملك ــ المهندس ، وبصفته بطريقة ما « صانع المطر » البعيد .

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن العقد الاجتماعى ، كما يقول سايس ، كان قائما على المـــاء : « أعطنى أرضك وجهدك ، أعطك أنا مياهى » .

وقصة الصراع المزمن بين المصرى والنيل توجز فى هذه الاشارة ، وهى كما يقول الدكتور حمدان : فى البدء كانت المعادلة : انسان خاضع للبحر ، الاول يعيش تحت رحمة الثانى ورهن نزواته ، والثانى يدفع ضريبتهالسنوية صاغرا للثانى . والآن تقرأ المعادلة : نهر استقل تماما عن البحر فلن يفقد له قطرة ماء ، ولكنه أصبح من الناحية الاخرى تابعا مطلقا للانسان انهـــا ثورة كاملةمن ثورات البيئات ، صنعت لمصر جغرافيا بشرية جـــديدة بكل وضـــوح(٣) .

ومن أجل ذلك كان السد العالى ــ كما يقول عبد الناصر ــ صورة كاملة للثورة المتعددة الجوانب فى نضـــال الشعب المصرى السياسى والاجتماعى والعلمى والاقتصادى والعسكرى والمعنوى .

« كل هذه الجوانب كان لها دورها فى القضية الدائمة للسد العالى،الذى اصبح اليوم رمزا حيا وخلاقا لنضال الانسان المصرى وآماله » .

وكان المبدأ الخامس من المبادىء الستة التى ارتكزت عليها الثورةالمصرية فى بناء الشخصية العصرية لمصر هو اقامة جيش وطنى قوى . وقد تم بناء

---

(١) CH. Perain, Méditerranée, Paris.

(٢) R.B. Pixon, Building of Culture.

(٣) انظر ، جمال حمدان : شخصية مصر .

هذا الجيش وأصبحت القوات المسلحة المصرية فى البر والبحر والجو قوة هائلة قادرة على الدفاع ، والهجوم معا. قادرة على أن تحمى الأمن العربى والأمل العربى ، قادرة على أن تحفظ السلام ، وعلى ردع العدوان .. « قادرة على أن تقف مع الصديق وأن تقف للعدو » .

يقول عبد الناصر :

« لقد اختبرت قواتنا المسلحة كفايتها تحت أصعب الظروف وأثبتت تفوقها وسيطرتها على احتمالات النصر » .

ولم تكتف بالسلاح التقليدى — الذى تحطم الى الابد احتكاره سنة ١٩٥٥! وانما تقدمت الى استكشاف الآفاق الجديدة فى العالم وهى تملك الآن من الاسلحة النووية ما يجعلها تتمكن من مواجهة التحدى تحت أية ظروف .

ان القوات المسلحة المصرية لم تنس مكانها من شعبها .

لقد ادركت بالوعى العميق وبالحس الصادق ان القوات المسلحة ولاؤها للشعب قوتها بيده ، وأمرها منه ، وتوجيهها وفق ارادته وفى خدمة آماله ومجتمعه الجديد .

« ان القوات المسلحة فى كل مرحلة التحول العظيم وأخطارها وتحدياتها ومؤامراتها وحروبها .. كانت الدرع الفولاذى للجماهير » .

وتأسيسا على الفهم العميق لدور القوات المسلحة فى بناء الشخصية المصرية أكد بعد نكسة يونيو بعام أن الهدف الاساسى للقوات المسلحة هو تحويل الهزيمة الى نصر ، وأن الهزيمة يجب الا تؤثر فى قواتنا المسلحة الا من ناحية الدروس المستفادة ، فقال فى أحاديثه مع القوات المسلحة فى يونيو ١٩٦٨

الشعب يرفض رفضا كاملا الاستسلام .. وأنتم القوات المسلحة :

« يجب الا تؤثر فيكم الهزيمة العسكرية التى واجهتنا فى المعركة الماضية الا من ناحية الدروس المستفادة منها ..

« يجب الا ننظر الى معركة ٥ يونيو على أنها آخر المطاف فجميع جيوش العالم واجهت الهزيمة ، وواجهت الانتصار ..

« والمهم اليوم أن نحول الهزيمة الى نصر ..

« وحتى نحول الهزيمة الى انتصار فهذه تحتاج منكم انتم جهودا شاقة وكبيرة ولفترة من الوقت .

— ان هذه الايام التى نقضيها فى هذه المنطقة .. هى أيام بالغة الاهمية فى عمرنا .. وفى عمر امتنا .

— وأنتم تعلمون ان الحرب أصبحت اليوم علمية قبل أن تكون أى شىء آخر ..

— ولا يمكن أن نحقق هذا التفوق الا على اساس استيعاب كامل للعلم والتكنولوجيا .. وأنتم القيادات تحتاجون الى العلم والتكنولوجيا .

ونحن من جانبنا .. نعمـــل كل الجهد كى نحضر لكم أحسن الأسلحة وأحـــــدثها » .

ثم يقول المعلم للجنود الذين حرصت الثورة على أن يكونوا من أبناء القوى العاملة فى الشعب ، بعد أن صنع الاستعمار بينهم وبين القوات المسلحة حجابا كثيفا .. ان الايمان هو طريق النصر .

« وأريد أن أقول لكم شيئا مهما .. وهو لن يموت أحد منا ناقص عمر .. وكل مخلوق له أجل محدود .. وكلنا مؤمنون بالله وبهذه الحقيقة ..

— ومن ناحية أخرى فلا بد أن يتعمق هذا الايمان فى قلب الجنود ..

— وأريد أن يكون كل جندى مؤمنا بالدين والمبادىء والقيم .

— ولا بد على التوجيه المعنوى أن يعمق هـــذه المعانى ويجعل عامل الايمان بالله أساس توعية الجندى .

— وهذا الايمان الذى يملأ قلب كل واحد .. يدفعه فى ألا يتردد فى وقت الشدة .. وقد لمستم ذلك فى المعركة .. وعشتم أيامها .. وأدركتم قوة المبادىء والايمان .

— وهناك نقطة لا بد أن يؤمن بها الجندى بعد ايمانه بالله .. وذلك هو ايمانه بقضية بلاده وتحرير الارض المحتلة .. وعلى كل جندى أن يكون عنده الوعى الكافى بهذه القضية كذلك ..

وكل جندى لابد وأن يشعر بأن الضابط فى معاملته له كأنه اخوه او ابوه .

— لا بد وأن يشعر الجندى بأن الضابط يخاف عليه .. ويخاف على حياته .. وأنه يبحث عن راحته واحواله .. وأنه يبحث عن شئونه الادارية ..

ــ حينئذ ستجدون جنودكم رجالا شجعانا تمتلىء قلوبهم بالايمان والوطنية .. لان هؤلاء الجنود يمثلون الشعب المصرى بأصالته وطبيعته .. هؤلاء الجنود عليهم أساس المعركة » .

ذلك هو الفهم العميق لاصالة الجندية المصرية .. وطبيعة الشخصية المحاربة فى مصر .. وذلك أيضا يوضح لماذا كان مظهر وداع عبد الناصر مظهرا فريدا بين مظاهر الوداع للعظماء والزعماء .. وكيف ترك الجيش موقعه من التنظيم فى الجنازة لينضم الى جموع الباكين والهاتفين من الشعب ، ويجلجل الشعار العظيم : « بالجيش .. والشعب حنكمل المشوار » .

ثم يكون المبدأ الأخير من مبادىء عبد الناصر فى بناء الشخصية المصرية : « اقامة حياة ديمقراطية سليمة » ولم تكن صدفة أن يجىء هذا المبدأ ترتيبا فى نهاية المبادىء الستة .. لان منطق الاشياء يحتم أن يكون كل مبدأ سابق تمهيدا لهذا المبدأ اللامتناهى فى مصادره وآفاقه .. ذلك أنه كان مستحيلا للديمقراطية ــ كما يقول عبد الناصر ــ أن تتحقق قبل القضاء على الاستعمار وعلى الاقطاع وعلى الاحتكار وسيطرة رأس المال وقبل اقامة العدالة الاجتماعية .

« ان كل خطوة تحققت بهذه المبادىء مكنت من خطوة مماثلة تجاه الديمقراطية السليمة .. ولقد كانت هناك تجارب فى الديمقراطية تتماشى مع تطور مرحلة التحول العظيم وتساير خطاها ، حتى تحققت الثورة الاجتماعية التى فجرتها على النطاق الاوسع قوانين يوليو المجيدة وضوح الرؤية الذى أسقط نهائيا تحالف الاقطاع ورأس المال .. وقام بعزله عن قوى الشعب العاملة » .

وأقام الاتحاد الاشتراكى العربى .. طليعة لهذه القوى الشعبية العاملة .. وسلحه بالوعى العميق بوحدة الديمقراطية .. لا فاصل بين الجانب السياسى منها والجانب الاجتماعى .

« ان الديمقراطية عملة واحدة ذات وجهين .. سياسى واجتماعى .

وبغير الوجهين معا تصبح عملة زائفة لا سعر لها ولا قوة .

وليس من شك أن هذا المجلس الموقر نفسه ــ يعنى مجلس الامة والحديث يوم الافتتاح فى ٢٦ مارس ١٩٦٤ ــ الذى جرى انتخابه بعد تفجير الثورة الاجتماعية ، وعلى أساس الميثاق ، وبتمثيل حقيقى لقوى الشعب العاملة .. يعطى الاغلبية بالحق للفلاحين والعمال هو صورة مشجعة لما توصل اليه العمل من أجل اقامة حياة ديمقراطية سليمة .

« على أنى أضيف الى ذلك أن الديمقراطية لا تتحقق فى كمالها الا بقيام التنظيم السياسى شامخا وفعالا . والا بقيام المجالس الشعبية المنتخبة ، توقع بارادة الجماهير الحرة كل قرار .. وتؤكد بالفعل لا بمجرد القـــول ان صوت الشعب من صوت الله » .

ولتحقيق هذا المبدأ فى بناء الشخصية المصرية اشترطت النظرية الناصرية لوجود الديمقراطية لقوى الشعب العاملة شرطين هما :

أولا : اقرار الحقوق السياسية للمواطنين مثل حـــق الانتخاب وحرية الرأى . .

ثانيا : ايجاد أوضاع اقتصادية واجتماعية لتضمن هذه الحقوق .

وان الاشـــتراكية وحـــدها هى التى تضـــمن تطبيق هذين الشرطين فالديمقراطية فى المجتمع الاشتراكى تعنى ديمقراطية قوى الشعب العاملة المسيطرة على أدوات الانتـــاج ، والديمقراطية الاشتراكية هى ديمقراطية جماهيرية بالضرورة نتيجة لسيطرة الشعب على أدوات الانتاج مما يجمع السلطتين السياسية والاقتصـــادية فى أيدى الجماهير . ويترتب على ذلك تعاظم دور الشخصية المصرية فى المجتمع وسيطرتها الحقيقية على الحياة السياسية فيه .

وقد اعترف عبد الناصر بوجود تعارض بين مصالح قوى الشعب العاملة والتأكيد على امكانية حل هـــذا التعارض سلميا داخل التنظيم السياسى عن طريق العمل والحوار الحى بين قوى الشعب والتفاعل بينهما ، وقد عبر — رحمه الله — عن هـــذه الحقيقة فى خطابه الذى القاه فى اللجنـــة التحضيرية للمؤتمر الوطنى بقوله :

« أما الخلافات فى داخل الشعب ، فهى مستمرة لا نهاية لها وسنحلها ، ولكن بالاساليب الديمقراطية ليس بأساليب الضغط ولا بالاوامر . وفى القرية وفى المدينة ، وفى كل حتة بنحلها بالاساليب الديمقراطية على أســـاس أن الديمقراطية الكاملة للشعب ، وأن الحرية الكاملة للشعب ، وكل شىء مبنى على النقاش ومبنى على الاقناع ، ومبنى عى الفهم المتبادل » .

وتصـــور عبد الناصر لبناء الشخصية الديمقراطية نابع آذن من الفهم الشـــامل لطبيعة الشخصية المصرية ، لذلك اعترف فى مفهـــومه بالصراع الطبقى ، فقرر فى الميثاق أن الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لايمكن تجاهله وانكاره ، وانما ينبغى أن يكون حله سلميا فى أطار الوحدة الوطنية ،

وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات . ولكن هذا الحل السلمى مرتبط بتجريد الرجعية من جميع أسلحتها ، ومنعها من أى محاولة للعودة الى السيطرة على الحكم وتسخير جهاز الدولة لخدمة مصالحها ، وكما قرر فى الميثاق ، فان هذا لا يزيل المتناقضات بين بقية طبقات الشعب ، وانما هو يفتح المجال لها لامكانية حلها سلميا أى بواسطة العمل الديمقراطى . وفهمنا لطبيعة الشعب المصرى كذلك من جانب عبد الناصر ، جاء مفهومه للديمقراطية لا يسمح بدكتاتورية الطبقة الواحدة وسيادتها ، أو احتكار القلة للسلطة السياسية ولكن يؤمن بتحالف قوى الشعب العاملة من فلاحين وعمال وجنود ومثقفين ورأسمالية وطنية . هى اذن ديمقراطية الشعب العامل بأكمله عن طريق الاتحاد الاشتراكى الذى يصبح السلطة الممثلة للشعب ، والدافعة لامكانيات الثورة والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة .

وانطلاقا من ذلك كله ، استطاع جمال عبد الناصر أن يحدث تغييرا ماديا عميق الاثر فى كيان الشخصية المصرية والعلاقات القائمة بين طبقات المجتمع المصرى وقواه الاجتماعية .

فتكونت نتيجة لذلك مجموعة من القيم الجديدة التى أصبحت من سمات الشخصية المصرية المعاصرة فى مواجهة القيم البالية التى حاربها عبدالناصر. واشرنا لها فى مستهل هذا الحديث .

فقد استطاع عبد الناصر أن يؤكد على قيمة « العمل » فى بناء الشخصية المصرية،باعتبار العمل هو القوة الخلاقة فى بناء أى مجتمع عصرى.وعبرعن ذلك فى الميثاق حين قال : ان مقدرة الشعب المصرى يجب أن توضع موضع الاعتبار ايجابيا بالتزامه هذا الهدف الذى ينبغى وضعه دائما أمام النضال الوطنى ، بل أن المقياس الحقيقى للارادة الوطنية يرتبط ارتباطا مباشرا باختصار مدة مضاعفة الدخل القومى الى أقل من عشر سنوات ، بكل المسافة التى يطيق الجهد الوطنى تحملها .

أن الوصول الى ذلك الهدف ممكن بالتخطيط الاقتصادى والاجتماعى دون ما تضحية بالاجيال الحية من المواطنين لمصلحة الاجيال التى لم تولد بعد .

ان امكانية تحقيق الهدف لا تعتصر قواهم تحت ضغط المسئولية انما كل الذى تتطلبه منهم هو العمل المنظم والامين فى اطار الاهداف الانتاجية للخطة ، وبوحى من الفكر الاجتماعى الذى يرسم لها طريقها الى صنع المجتمع الجديد ، وما يمكن لهذا الفكر أن يطوره من قيم أخلاقية جديدة ، ومعان انسانية متفتحة للحياة نابضة بها .

« ان ذلك يتطلب جهودا جبارة فى ميادين تطوير الزراعة والصناعة وهياكل الانتاج الاساسية اللازمة لهذا التطوير ، وبالذات طاقات القوى المحركة ، ووسائل المواصلات .

« ان التطبيق العربى للاشتراكية فىمجال الزراعة ، لا يؤمن بتأميم الأرض وتحويلها الى مجال الملكية العامة ، وانما هو يؤمن استنادا الى الدراسة والى التجربة بالملكية الفردية للارض فى حدود لا تسمح بالاقطاع .

« ان هـذه النتيجة ليست مجرد انسياق مع حنين الفلاحين العاطفى الطويل الى ملكية الارض ، وانما الواقع أن هذه النتيجة تبعث من الظروف الواقعية للمشكلة الزراعية فى مصر ، والتى أكدت قدرة الفلاح المصرى على العمل الخلاق اذا ما توفرت له الظروف الملائمة ان كفاية الفلاح المصرى ، على امتداد تاريخ طويل عميق بالخبرات المكتسبة من التجربة ، قد وصلت فى قدرتها على استغلال الارض الى حد متقدم ، خصوصا اذا ما أتيحت له الفرصة للاستفادة من نتائج التقدم العلمى للزراعة » .

ومن ناحية أخرى اكد عبد الناصر أن الصناعة المصرية تطور شكل العمل فى مصر تطويرا ثوريا بعيد الاثر ، فقال :

« وان النجاح العظيم الذى حققته الصناعة منذ بدات برامجها المنظمة فى مصر ، كان السند العملى للحقوق الثورية التى حصلت عليها الطبقة العاملة ضمن قوانين يوليو سنة ١٩٦١ .

« ان هذه الحقوق الثورية جعلت الآلات ملكا للعمل ، ولم تجعل العمل ملكا للآلات .

« لقد أصبح العامل هو سيد الآلة ولم يعد أحد التروس فى جهاز الانتاج » .

وتحقيقا لتكافؤ الفرص ، وهو التعبير عن الحرية الاجتماعية حدد عبد الناصر لكل مواطن حقوقا أساسية ينبغى تكريس الجهد لتحقيقها :

أولها — حق كل مواطن فى الرعاية الصحية بحيث لا تصبح هذه الرعاية علاجا ودواء مجرد سلعة تباع وتشترى ، وانما تصبح حقا مكفولا غيرمشروط بثمن مادى ، ولا بد أن تكون هذه الرعاية فى متناول كل مواطن ، فى كل ركن من الوطن فى ظروف ميسرة وقادرة على الخدمة .

ثانيها — حق كل مواطن فى العلم بقدر ما يتحمل استعداده ومواهبه .

« ان العلم طريق تعزيز الحرية الانسانية وتكريمها ، كذلك فان العلم هو الطاقة القادرة على تجديد شباب العمل الوطنى واضافة أفكار جديدة اليه كل يوم ، وعناصر قائدة جديدة فى ميادينه المختلفة .

ثالثها ـــ حق كل مواطن فى عمل يتناسب مع كفايته واستعداده ومع العلم الذى تحصل عليه . ان العمل ـــ فضلا عن أهميته الاقتصادية فى حياة الانسان ـــ تأكيد للوجود الانسانى ذاته .

رابعها ـــ ان التأمينات ضد الشيخوخة وضد المرض لابد من توسيع نطاقها بحيث تصبح مظلة واقية للذين أدوا دورهم فى النضال الوطنى وجاء الوقت الذى يجب أن يضموا فيه حقهم فى الراحة المكفولة بالضمان » .

كذلك أراد عبد الناصر للمجتمع المصرى أن يصوغ قيما أخلاقية جديدة لا تؤثر عليها القوى الضاغطة المتخلفة من العلل التى عانى منها مجتمعنا زمانا طويلا . فأكد ان هذه القيم لابد لها أن تعكس نفسها فى ثقافة وطنية حرة تفجر ينابيع الاحساس بالجمال فى حياة الانسان الفرد الحرة ، وأكد من خلال الفهم العميق للشخصية المصرية وطبيعتها : ان حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة .

« ان القيم الروحية الخالدة النابعة من الاديان قادرة على هداية الانسان ، على اضاءة حياته بنور الايمان ، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة .

« ان الله ـــ جلت حكمته ـــ وضع الفرصة المتكافئة » أمام البشر أساسا للعمل فى الدنيا وللحساب فى الاخرة .

« وينبغى لنا أن نذكر دائما ان حرية الانسان الفرد هى أكبر حوافزه على النضال .

وان العبيد يقدرون على حمل الاحجار ، وأما الاحرار فهم وحدهم القادرون على التحليق الى آفاق النجوم » .

تلك هى معطيات حياة عبد الناصر .

وتلك هى معطيات بناء الشخصية المصرية .

فهل نستطيع أن نقول فى نهاية الأمر أن عبد الناصر قد حقق المطمح الاساسى الذى عاش مصطفى كامل وقاسم أمين وسعد زغلول ولطفى السيد لتحقيقه كل من جانب معين !! نعتقد ان عبد الناصر قد فعل ذلك .

وان الشخصية المصرية فى انطلاقاتها قد تخلصت من كثير من الرواسب القديمة ، وانجلى عنها غبار قرون طويلة .

وان عبد الناصر دعا لمصر فى العالم ، وقام ببناء علمى للشخصية المصرية مستمد من الفهم العميق لطبيعتها ، وكلا الجهدين — كما أسلفنا — لازم لازب لضرورة استمرار المسيرة الثورية بأجنحتها الثلاثة : بناء مصر عربيا، وتطوير الحركة القومية فى الوطن العـــربى ، وتنميتها فى بناء الوحـــدة والتحـــرر ..

ولعلنا نستطيع أن نختم هذه الصفحات بحديث من المعلم العظيم الذى كان يشعر بمدى ما يكنه شعبنا العظيم كأنه أراد أن يواسينا قبـــل أن يرحل .. قال أمام مجلس الامة فى مارس ١٩٦٤ :

« ان حياة أى انسان وديعة لخالقه ، يستردها حين تشاء ارادته .
ومن ناحية أخرى فلقد كنت أدرك اننى أتعرض لمفاجآت لا حصر لها طوال مرحلة التحول العظيم .

ولم تكن بى خشية على نفسى ، فاننى أقدر مسئولية ما فعلت منذ اليوم الذى بدأ فيه العمل لتنظيم الثورة . لكن الخشية كانت على وطنى .

ان آمال هذا الوطن .. والنتائج العظيمة التى حققها بعمله لابد أن تصان فوق كل المفاجآت .

« ولقد كان لابد من نظام يرسم الطريق الذى يتبع لكى تبقى الامور دائما فى يد الشعب يقرر فيها رأيه ويعمل ارادته .

وانى لاشعر بالراحة والرضا أن مثل هذه الفجوة الخطيرة التى كنت أشعر بها وراء ظهرى قد وجدت حلا لها .

ثم يقول المعلم العظيم :

« ان الشعب المصرى فى هذا اليوم قد حقق بنضاله الانسانى البطـــولى مرحلة التحول العظيم . وهو الآن على طريقه الى مرحلة الانطلاق العظيم فوق أرض ثابتة تحت شمس — كالحقيقة » .

مصر على طريق عبد الناصر

يقول الزعيم الخالد فى الميثاق :

« ان الحرية الاجتماعية طريقها الاشتراكية ، وان الحرية الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق الا بفرص متكافئة أمام كل المواطنين فى نصيب عادل من الثروة الوطنية » .

ومن هذا المنطلق ، خطا عبد الناصر بالثورة الى الانطلاق بالشعب المصرى فى صنع المجتمع الجديد ، المتسم بالسمات المصرية فى موضوعها وشكلها ، وذلك ما يؤكده الدكتور محمد عبد القادر حاتم فى كتابه « حول النظرية الاشتراكية » اذ رأى عبد الناصر ضرورة قيام المجتمع الجديد فى مصر على أساس من الاشتراكية الديمقراطية التعاونية راعى طبيعة مصر وظروفها وحاجتها ، وهو بذلك أول من طبق تلك النظرية فى أول دولة كبرى فى اطار من القومية العربية .

وفى ضوء هذه الرؤيا ، نفهم اهتمام عبد الناصر بالارض الزراعية وارتباط الفلاح المصرى بها ، فاتخذت الثورة أساسا عادلا للتوزيع باصدار قانون الاصلاح الزراعى رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ .

كما أن القرارات الاشتراكية الثورية التى أصدرها عبد الناصر أوضحت معالم المجتمع حينما اهتمت بالفلاح هذا الاهتمام الواجب من زعيم مصرى يدرك أبعاد شخصية وطنه ، فأصدر تعديلا لقانون الاصلاح الزراعى فى سنة ١٩٦١ يقضى بأنه لا يجوز لاى فرد أن يمتلك من الاراضى الزراعية أكثر من مائة فدان .

على أن النظرية الثورية لدى عبد الناصر امتدت لتصنع أسس الاشتراكية العمالية والتنظيم الاشتراكى الجديد بعد اشتراكية الارض ، ومن أجل ذلك رأيناه يستكمل للمجتمع المصرى الجديد ملامحه باشتراكية التأميم وبدأت بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ اذ أصدر قرارا بالقانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ، ثم بتاريخ ٢٥ يناير سنة ١٩٥٧ أممت البنوك ، وتبع ذلك تمصير بورصتى الاوراق المالية ، وتأميم البنك الاهلى ، ثم بنك مصر ، وفى سنة ١٩٦٠ أممت المواصلات

واستكملت ذلك بالقوانين الاشتراكية التى صدرت فى يوليو سنة ١٩٦١ ، والتى كانت أول ضربة مباشرة لرأس المال المستغل حيث تضمنت تأميم ١٤٩ شركة تأميما كاملا ، وتضمنت تأميم ٩١ شركة تأميما نصـــفيا ، ثم جاءت قوانين يوليو ١٩٦٣ فأتمت حكومة الثورة تأميم كل مصادر الثروة الطبيعية والصناعات الاستراتيجية والهامة حيث أممت ٢٢٨ شركة ومنشأة صناعية وانهت الحكومة جميع عقود استغلال المناجم والمحاجر الممنوحة للافراد فى سنة ١٩٦٣ ، تلك القوانين التى استهدفت العدل بين المواطنين والقضـــاء على الاحتكار .

وحينما غاب عنا عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، أعلنت مصر جميعها بزعامة رفيق نضاله العظيم الرئيس أنور السادات ، مواصلة الطريق الذى قطعه وشق دروبه جمال عبد الناصر .

وكان أمام المنشآت الثورية التى حققها عبد الناصر تلك الثورة بمبادئها وأفكارها وأهدافها لتحقيق زيادة الانتاج وعدالة التوزيع من أجل بناء مصر العربية الحـــديثة .

وفى الصفحات المقبلة شهادات واقعية لبعض الانجازات التي تمت فى عهد عبد الناصر وتبلور الوجه المشرق لمصر العربية . وهو الامر الذى اكده الكاتب الانجليزي ديزموند ستيوارت فى مجلة « سبكتاتور » ، حين قال عن عبد الناصر :

« ان الرئيس العربى قاد بلاده فى طريق التنمية السليمة وان ثمار ثورته فى هذا المجال تعد حقائق مذهلة ، وفوق كل شيء ، فهى تتزايد باستمرار لتنفيذ المشروعات التي ترضى الشعب وتعمل علي رفع مستوي الجماهير » .

عبد الناصر ... والكهرباء

بقلم
مهندس عدلى يكن
رئيس مجلس ادارة
المؤسسة المصرية العامة للكهرباء

« ان وصول القوى المحركة الى كل مكان فى مصر هو شرارة الثورة القادرة على تحريك طاقات التغيير الجذرى اقتصاديا واجتماعيا من التخلف الذى كان الى التقدم الذى يتطلع اليه النضال الوطنى » .

بهذه الكلمات القوية عبر الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ومن خلال ميثاق العمل الوطنى عن أهمية الكهرباء فى تحريك طاقات التغيير فى جميع المجالات .. وكان ثاقب النظرة فى هذا المجال فكانت الكهرباء فعلا هى شرارة الثورة التى ساهمت فى نهضة البلاد فى جميع المجالات .

وكانت الكهرباء قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تتصدر قائمة القطاعات التى عانت من التخلف والجمود .. فقد كانت تحت تصرف حفنة من المستعمرين المستغلين حاربوا كل تطوير فى قطاعها .. وأصروا على أن تكون مصر فى ذيل قائمة الدول المستغلة للكهرباء متعمدين أن تظل مصر بلدا زراعيا تنتج القطن لمصانع « مانشستر » . فعندما بنى الاستعمار خزان أسوان عام ١٩٠٢ كان الهدف الرئيسى من بنائه هو استغلاله فى الرى فقط .. حتى عندما تقدمت العروض الاجنبية لتوريد الكهرباء من هذا الخزان رفضها الاستعمار عن آخرها ..

المهم أن الكهرباء التى كانت تولد قبل الثورة تضاء بها مساكن الاستعمار والاقطاع وتغذى محطات الرى والصرف لانتاج المحاصيل الزراعية ليصدرها الاستعمار الى بلاده .. ويعيش أفراد الشعب فى ظلام .

ولذلك عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو وظهر ابن مصر وبطلها الزعيم جمال عبد الناصر .. فكر فى احداث ثورة فى الصناعة والزراعة تعتمد على طاقة جديدة من الكهرباء .. ولهذا نجد انه بعد قيام الثورة بثلاثة أشهر طلب الرئيس عبد الناصر انشاء لجنة خاصة تشرف على انتاج وتطوير الكهرباء .

فتكونت لاول مرة « لجنة كهربة مصر » على أساس أن تتعاون مع الخبرات الاجنبية فى تنفيذ مشروعاتها .. وتم التعاقد مع هيئة كهربة فرنسا لوضع خطة تهدف الى كهربة البلاد فى مدى عشرين عاما ..

كما انشأ الزعيم الخالد مكتبا يشرف عليه خبراء مصريون لمراقبة تنفيذ المشروعات . ونجد أنه عندما صممت الثورة على اجلاء المستعمرين تباطأ الخبراء الفرنسيون فى التنفيذ . ووضح أمام الرئيس أن هذه المشروعات لن يتم تنفيذها الا بأيد مصرية .. وكان ذلك هو بداية التخلص من احتكار الشركات الاجنبية .. وتوالت المشروعات الكبيرة .. وأخذت الكهرباء تمتد على ضفاف النيل العظيم فى أنحاء مصر .. وتنشر معها التقدم فى كل مكان .

وعندما وجد الزعيم جمال عبد الناصر أن مصر تشكو من نقص فى شبكات نقل الكهرباء ذات الجهد العالى والمتوسط ، وهى التى تقوم بنقل الكهرباء من أماكن التوليد الى مراكز الاستهلاك .. طلب انشاء عدد من خطـــوط الكهرباء الهوائية والارضية وشبكات التوزيع ذات الجهد المنخفض التى توصل التيار للمستهلكين .

وليس ادل على اهتمام عبد الناصر بالكهرباء فى مصر ، من انه دخل من اجلها معركة ضارية مع ثلاث دول استعمـــارية ، وهى معركة ١٩٥٦ . فصمم على بناء السد العالى الذى أصبح الآن احـــدى معجزات القـــرن العشرين ــ ولكن الاستعمار ومن يدعمه أراد ان يفشل هذا العمل الضخم ويمنع قيامه .. فاوعز الى البنك الدولى برفض تمويله .. فكان تاميم قناة السويس لطمة قوية للاستعمار قام على اثرها بشن عدوانه الغادر على مصر .. الذى رد بعده ، وكيده فى نحره .. وساهم الأصدقاء فى تمـــويل مشروع السد العظيم .. الذى ينتشر بفضله الآن النور فى ربوع قرى ريف مصر العظيم .. وتحقق بفضل السد العالى وكهربائه ثورة صناعية كبرى . منها على ســـبيل المثال قيام مجمع الحديد والصلب بواسطة الكهرباء .. كما تسير فى نفس الخط ثورة زراعية جديدة تقوم على اساس كهربة الالات الزراعية ، ونستطيع ان نقول انه تحقق بفضل الكهرباء ثورة فى جمـــيع المجالات .. اى تحققت ثورة الكهرباء .

وقد ساعد الزعيم الخالد فى تنفيذ خططه فى مجال الكهرباء عدد من مهندسى الكهرباء فى مصر . .وما زالوا يواصلون نفس المسيرة تحت قيادة :

الرئيس انور الســـادات

ومنهم المهندس أحمـــد سلطان وزير الكهرباء ، وابن قطاع الكهرباء □

كهربة الريف فى فكر عبد الناصر

بقلم
المهندس عبد العزيز عبد النبى
رئيس الجهاز التنفيذى للهيئة العامة
لكهربة الريف

« ان وصول القرية الى المستوى الحضارى ليس ضرورة عدل فقط .. ولكنه ضرورة أساسية من ضرورات التنمية » ..

بهذه الكلمات التى تفيض حبا لريف مصر العظيم .. عبر الزعيم الخالد وابن القرية — عن حرصه الشديد على ان يأخذ بيد القرية المصرية وينقلها من عهد الظلام الى عهد النور . حيث تشعر بكرامتها وتسترد حقها المسلوب وتلحق بركب المدنية والحضارة .

وكان عبد الناصر يعرف تماما أنه لا يمكن تحقيق ذلك الا بالكهرباء .. تصل الى القرية ، فتنتشلها من الظلام الذى غابت فيه من الدنيا .

ومن هنا كان اهتمام عبد الناصر بالكهرباء .. يدعمها .. ويشحذ همم العاملين بها .. ويوحى بالمشروعات الجديدة الخاصة بانشاء محطات كهرباء جديدة .. ومد شبكات جديدة . واصبحت للكهرباء لاول مرة فى مصر وزارة فى عهد عبد الناصر . ولتحقيق كهربة الريف فكر الزعيم الخالد فى بناء السد العالى الذى يولد الطاقة الكهربائية لكل شبر على أرض الوطن . وبارادته الصلبة اجتاز كل العقبات التى كانت تعترض بناءه .

وتحول مشروع كهربة الريف فى عهد عبد الناصر من مجرد مشروع اقتصادى أو حضارى الى مطلب جماهيرى عندما حظى هذا المشروع بمناقشات واسعة وعميقة فى جلسات المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى فى مارس ١٩٦٩ . ثم اصبح قرارا سياسيا عندما اصدر المؤتمر القومى توصياته بالمضى فى تنفيذ المشروع .

ولذلك ظل مشروع كهربة الريف حلما يراود عبد الناصر ويعانق أمانيه . فكانت أمنيته الكبرى أن يرى الكهرباء فى كل بيت فى القرية المصرية ، حتى فجعت فيه الأمة العربية والعالم بأسره فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

وجاء رفيق نضاله الرئيس أنور السادات ليحقق حلم عبد الناصر . ودخل مشروع كهربة الريف مرحلته العملية عندما أعلن الرئيس السادات أثناء الاحتفال بانتهاء العمل فى السد العالى فى يناير ١٩٧١ تبنى الحكومة لهذا المشروع وقيام الاتحاد السوفييتى بالمعاونة فى تنفيذه خلال خمس سنوات .

* * *

وزارة الكهرباء

الهيئة العامة لكهربة الريف

المشروع الثانى العظيم ... بعد السد العالى

كهربة الريف مطلب جماهيرى ... لماذا ؟

كان لتوليد الكهرباء من السد العالى وانشاء الشبكة الكهربائية الموحدة أثره البالغ فى انتشار الوعى بأهمية الكهرباء لدى جميع المواطنين .. وعند بدء كهربة بعض القرى سواء بالجهود الذاتية أو غيرها .. تحركت الرغبة عند سكان القرى لتوصيل الكهرباء الى قراهم .. مما جعل كهربة الريف مطلبا جماهيريا تناوله المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى العربى فى مارس عام ١٩٦٩ ، ثم اتخذ صفة القرار السياسى حينما أصدر المؤتمر توصياته بالمضى فى تنفيذ المشروع . وقد كان ذلك بمبادرة من السيد / **الرئيس أنور السادات** وبفضل الرعاية التى أولاها للمشروع الزعيم الراحل **جمال عبد الناصر** .

وقد دخل المشروع مرحلته التنفيذية الفعلية عندما أعلن السيد الرئيس أنور السادات أثناء الاحتفال بانتهاء العمل بالسد العالى فى يناير ١٩٧١ « تبنى الحكومة لمشروع كهربة الريف » .

حقائق حول المشروع

- ان هذا المشروع يعتبر المشروع الثانى العظيم لمنجزات الثورة بعد السد العالى من ناحية ضخامته وتكاليفه وأهميته للشعب .

- يقوم بتنفيذ المشروع الهيئة العامة لكهربة الريف التى يرأس مجلس ادارتها السيد / **المهندس احمد سلطان** وزير الكهرباء . ويرأس جهازها التنفيذى السيد / **المهندس عبد العزيز عبد النبى** .

- تبلغ تكاليف تنفيذ المشروع حوالى ١٨٣ مليون جنيه .

● قدرت مدة تنفيذ المشروع بخمس سنوات يتم خلالها كهربة أكثر من ٥٥٠٠ قرية وكفر وعزبة ونجع .

● يؤدى تنفيذ المشروع الى تشغيل حوالى ١٦ الف عامل منهم عدد كبير من المهندسين والفنيين والمهنيين .

● بتنفيذ هذا المشروع الثورى العظيم يرتفع نصيب الفرد من ٥ وات الى ٤٠ وات خلال عشر سنوات .

● علاوة على الاهداف النبيلة والوطنية والاقتصادية الضخمة التى يحققها هذا المشروع من ناحية انارة بيوت الفلاحين وتطوير قطاع الرى والزراعة والتصنيع فى القرية . وتدعيم شبكات مدن الجمهورية . فانه سيحقق أرباحا للدولة خلال عشر سنوات تبلغ ٢١١ مليون جنيه ، و ١١٦٩ مليون جنيه خلال ٤٠ سنة .

وأخيرا .. فان هذا المشروع العظيم يأخذ بيد القرية المصرية الى عصر النور والحضارة .. ويلحق بها الى ركب المدنية التى سبقتها اليه المدينة . فى الوقت الذى كانت تعانى فيه من ذل وهوان الاقطاع .. انه هدية وواجب نحو فلاح مصر الأصيل صاحب المصلحة الحقيقية فى ثورة يوليو المجيدة □

* * *


لانوسول
مثبت للشعر
يحافظ على تسريحتك
الجميلة لأطول
مدة ممكنة
لانوسول
Lanosol
CTC
توزيع:
الشركة العامة للتجارة والكيماويات
٢٦ شارع شريف بالقاهرة - ت: ٧١٨٠٠

المؤسسة المصرية العامة للنقل البرى للبضائع

٤ شارع يوسف عباس . مدينة نصر ــ القاهرة

تختص المؤسسة منذ إنشائها فى خدمة الأقتصاد القومى بصورة تتناسب مع الدولة الحديثة التى تسعى إلى تحقيقها بكل جهد وإخلاص .

وتغطى أساطيلها من سيارات وجرارات جميع أنحاء الجمهورية فى حركة دائبة لا تهدأ من أجل نقل البضائع من مصادر إنتاجها إلى مواقع استهلاكها أو موانى تصديرها سواء أكانت خامات أو مستلزمات إنتاج أو سلعاً تموينية .

وتشرف المؤسسة على أربع شركات تختص بنقل البضائع على الطرق . . . وشركة خامسة لإصلاح السيارات وهى :

* شركة النيل العامة لنقل البضائع
* شركة النيل العامة للنقل البرى
* شركة النيل العامة لأعمال النقل
* شركة النيل العامة للنقل المباشر
* شركة النيل العامة لإصلاح السيارات

وهذا بالإضافة إلى إشرافها على أربع وعشرين جمعية تعاونية للنقل بالجمهورية . ويشمل نشاطها نقل المواد التموينية والأسمدة المستوردة من الموانى إلى داخل البلاد والقطن والأرز للتصدير وإنتاج المصانع ومستلزمات الأنتاج ــ ومواد التشييد والبناء .

وفى النهاية نلمس مدى ما حققته من تطور فى الأنتاج مما يعود بالأثر المباشر على اقتصاديات الدولة نحو التطور الأشتراكى .

شركة مضارب شرق الاسكندرية

وادكو ـ ورشيد

إحدى شركات

المؤسسة المصرية العامة للمضارب

شارع قنال المحمودية البر القبلى النزهة ـ الاسكندرية

ووحداتها :

الوحدة	الموقع
مضرب المصرية	النزهة
مضرب الحديثة	النزهة
مطحن الأرز (الفراتكس)	النزهة
مضرب أدكو	أدكو
مضرب عبد الحافظ	رشيد
مضرب مرزوق	رشيد
مضرب دومة	رشيد
مضرب القزق	رشيد

يساهم إنتاجها البالغ ٥٠٠ طن يومياً من الأرز الأبيض فى دعم الاقتصاد القومى وسد احتياجات السوق المحلى .

مجلس الإدارة :

الاسم	المنصب
السيد الأستاذ المهندس شريف الهراوى	رئيس مجلس الإدارة
السيد الأستاذ المهندس محمد كامل الوكيل	مدير عام الإدارة الفنية
السيد الأستاذ أحمد عبد المنعم كمال	مدير عام الإدارة الإدارية
السيد الأستاذ ماهر جلال الغر	مدير عام الإدارة التجارية
السيد الأستاذ مراد نجيب عطا الله	المدير المالى

شركة مضارب غرب الاسكندرية

احدى شركات المؤسسة المصرية العامة للمضارب

شارع قنال المحمودية البر القبلى محرم بك — الاسكندرية

ويتبعها :

* مضرب الشامى بمحرم بك
* مضرب بهرند بكرموز
* مضرب الفتح بسموحة
* مضرب القبارى بالقبارى
* مضرب برعى بكفر عشرى

مدعمة بأجهزة لتنقية الأرز إلكترونياً ، تضع إنتاجها الذى يبلغ ٥٠٠ طن يومياً من الأرز الأبيض الذى يساهم بقدر كبير فى عمليات التصدير وسد احتياجات السوق المحلى فى خدمة الاقتصاد العربى .

مجلس إدارة الشركة :

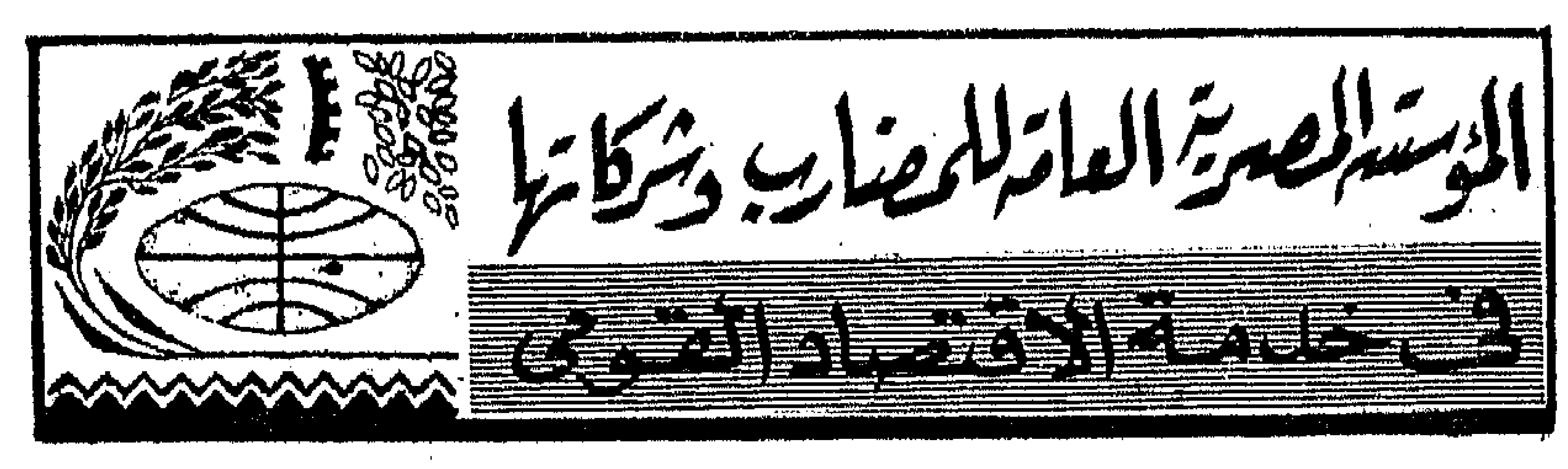
السيد المهندس نعيم ثابت أثناسيوس رئيس مجلس الإدارة

« الأستاذ عبد السلام عبد العزيز عضو مجلس الإدارة — مدير عام الإدارة العامة للشئون المالية

« الأستاذ عادل محمد نوفل عضو مجلس الإدارة — مدير عام الإدارة العامة للشئون الفنية

« الأستاذ صالح محمد دسوقى عضو مجلس الإدارة — مدير عام الإدارة العامة للشئون الإدارية

« الأستاذ صلاح الدين محمد شعير عضو مجلس الإدارة — مدير عام الإدارة العامة للشئون التجارية



* شركة مضارب شرق الإسكندرية وأدكو ورشيد
* شركة مضارب غرب محافظة الإسكندرية
* شركة مضارب محافظة البحيرة
* شركة مضارب محافظة الغربية
* شركة مضارب غرب محافظة كفر الشيخ
* شركة مضارب شمال محافظة الدقهلية
* شركة مضارب جنوب محافظة الدقهلية
* شركة المضارب المتحدة
* شركة مضارب دمياط وبلقاس
* شركة مضارب شرق محافظة كفر الشيخ

استوردت المؤسسة ٨ مضارب جديدة وحددت لها المواقع التالية :

قطور — رشيد — فاقوس — الزرقا

كفر صقر — أبو حمص — دسوق — بيلا

مضرب قطور :

أجريت تجارب التشغيل فى حضور الجانب الألمانى والجانب المصرى (المؤسسة والشركات) والتجارب كانت مشجعة للغاية . والأرز الناتج مطابق للمواصفات .

أما عن مميزات مضرب قطور :

١ — يعد أول مضرب متكامل يتم إنشائه فى نطاق المؤسسة المصرية العامة للمضارب.
٢ — أول مضرب كل آلاته من دولة واحدة ومن إنتاج واحد .
٣ — أول مضرب يكون به تناسق تام بين الأقسام المختلفة سواء القوى المحركة أو أقسام الغربلة والنظافة أو القشر أو التبييض .
٤ — أول مضرب فى الجمهورية بطاقة إنتاجية قدرها ١٥٥ طن أرز أبيض فى اليوم.
٥ — أول مضرب فى الجمهورية مزود فى جميع أقسامه بنظام شفط الهواء فى جميع المراحل مما يتيح إنتاج أرز أبيض ناصع البياض وعدم تعرض العاملين فى أقسام المضرب للأتربة والغبار .
٦ — أول مضرب فى الجمهورية تخرج منه النواتج الثانوية (السرسة — الرجيع — الجرمة — الكسر) للأنتاج مدرجة وفقاً للاحتياجات الصناعية والغذائية .



شركة النصر للأجهزة الكهربائية والالكترونية (فيليبس)
فيليبس
PHILIPS
تقدم فخر إنتاجها الجديد
تليفزيون فيليبس ٢٤ بوصة
جهاز
راديو
ترانزستور
طراز
٨٩ . ت
تباع لدى الشركة وجميع محلات القطاع العام والتجار
المتخصصين فى تجارة الراديو والتليفزيون
٢٦ شارع عدلى ت ٨/٤٩٧٤٦ - ٣/٧٤٩٩١
مركز الخدمة ٣١١ شارع شبرا ت ٩٤٤٥٩٩
فرع الاسكندرية ومركز الخدمة ٩ شارع سيزوستريس ت ٢٥٧٦٠

الدفء
الجميل في
ليالي
الشتاء

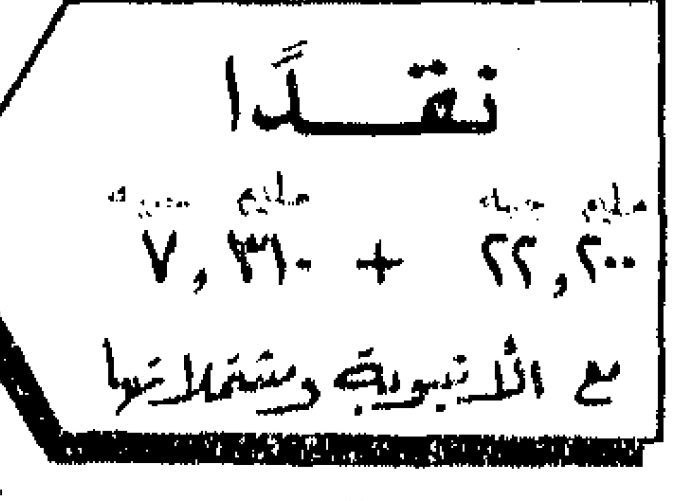


دفاية
ايديال
بالبوتاجاز

مزود بجهاز أمان يغلق صمام الغاز
في حالة انطفاء اللهب.

التسليم فورًا

مزود بعجلتين في الجزء الأمامي
لسهولة حركتها.



بالتقسيط
مليم جنيه
٥,٢٠٠ دفعة أولى
٧,٣١٠ قيمة الأنبوبة وملحقاتها
١,٥٠٠ القسط الشهري
لمدة ١٢ شهرًا

تجدها في جميع فروع ايديال


الصناعة العربية تغنيك عن كل ما هو أجنبي
شركة مطابع محرم الصناعية
تقدم للأسواق المحلية والأقطار العربية أنفس إنتاجها من :
ورق اللعب
١١١ حجم بوكر
٨٨٨ حجم بوكر
٨٦٥ حجم بريدج
ورق لعب رسوم فرعونية
ورق لعب للدعاية حسب الطلب
JOKER
صناعة الكراريس وطباعة الكتب والتقاويم والورق المصمغ
وصناديق الكرتون للتعبئة والطباعة الليتوغرافية الفاخرة
لأية استعلامات نرجو الاتصال
شركة مطابع محرم الصناعية

الشركة الشرقية للأقطان

تلغرافيا (ماريا) الاسكندرية

س.ت. ٥٥١٩٣

احدى شركات المؤسسة المصرية العامة للقطن

عمارة برج الثغر - اسكندرية

ت ٣٧١٣٠ / ٣٧١٢٩

تجارة وتصدير الاقطان

وكلاء في جميع أنحاء العالم

- تمد المغازل المحلية بما يوازى ½ المستهلك محليا .
- تمد فروعها فى انحاء الجمهورية تمكينا لخدمة التسويق التعاونى فى مرحلته حيث تبلغ استلاماتها ½ المحصول . كما تتركز معظم مناطق انتاجها بالقرب من المغازل المحلية .
- تنتشر فروعها على الوجه التالى :

القاهرة • الفيوم • بنى سويف • بنى مزار • جرجا • دمنهور • طنطا • المحلة • المنصورة • الزقازيق • شبين الكوم

لعل من الضرورى أن نقول أن المؤسسة المصرية العامة للطرق والكبارى ، قد أخذت وضعها الحقيقى ، بعد قيام المؤسسات النوعية ، فانطلاقاتها .. حددت للمؤسسة أهدافها .. وأهداف وجودها ، وداخل هـذا التحديد ، لابد أن يقوم التطوير وأن تتحقق الغاية المطلوبة ، وأى عمل مهما كان اذا لم تحدد خطته وأن لم يتضح هدفه كان جهدا ... ضائعا بلا حساب ..

ولقد حددت المؤسسة المصرية العامة للطرق والكبارى لنفسها هدفين ، رئيسيين :

■ رفـع مسـتوى العمل ، وتحسين الانتـاج ..

■ خفـض تـكاليف التشـغيل ..

وتحت هـذين الهدفين .. أدرجت أهدافا فرعية ، تتحقق جميعا طبقـا لجدول زمنى ولنلق نظرة على ما فعلته المؤسسة ، طبقا لهذين الهدفين .

رفـع مستوى العمـل

كان لابد ، حتى يتحقق رفع مستوى العمل ، أن توجد دراسات ميدانية للتأكد من وضع الاهداف موضع التنفيذ فمن خلال الدراسات التى أجريت وضح أن التلفيات فى الطرق ترجع أساسا الى قلة العناية بالتشغيل ، وعدم الاهتمام الكافى بضبط الماكينات .. وأسباب أخرى يمكن تلافيها حتى يمكن رفع مستوى الانتاج وأمام ذلك اتخذت المؤسسة هذه القرارات ..

المؤسسة المصرية العامة للطـ

نموذج ممتـاز ... للوحـ

* رفع مدة الضمان من سنة واحدة الى ثلاث سنوات فعلى الشركات التى تقوم بتنفيذ اعمال الطرق أن تظل مسئولة عن هذه الطرق لمدة ثلاث سنوات بدلا من سنة واحدة وهذا يضمن بالتأكيد جودة الانتاج .

* بجوار مسئوليات الشركات المالية فهى مسئولة أيضا من الناحية الادارية — عن أى تقصير — أو اهمال فى التنفيذ ، مع محاسبة المتسببين فى أى تقصير أو خطأ وهذا لم يكن فيما سبق .

* لا يصرح باستخدام أى ماكينات قبل الاقرار من لجنة فنية متخصصة بأنها صالحة لانتاج أعمـال تطابق المواصـفات المطلوبة .

* أعطيت المؤسسة .. مهلة زمنية للشركات لاضافة وحدات الضبط لبعض الماكينات التى تعمل فى خلط الاسفلت .. والتى كانت تنقص هـذه الوحدات .

بعد مرور ثلاث سنوات من وضع هذه الخطوط الجديدة جاءت النتيجة كالاتى : —

* لمس جمهور مستخدمى الطرق ، مستوى جديدا من الرصف الجديد ولم تعد ظاهرة تلف الطرق ... موجودة على الاطلاق ، وكانت النتيجة مطمئنة ... ومرضية للغـاية ..

خفض التـكاليف

* استطاعت المؤسسة المصرية العامة للطرق والكبارى من خلال ما وجه من نقد للقطاع العام أن تكتسب الكثير ولقد كان من أهم ما وجه من نقد هو ارتفاع تكاليف الانتاج وأمام هذا أجرت المؤسسة دراسات ميدانية ، حتى يمكن التحكم فى ضبط أسعار الانتاج ، وروعى فعلا تثبيتها عند مستوى عام ١٩٦٥ .. مع مراعاة الزيادات الحتمية فقط .. عن مستوى ما قبل التأميم وأمام هذا وضعت تكاليف نمطية لكل بنـد من بنـود أعمال الطرق ، يتضمن تفصيلات عناصر التكلفة بحيث لا يسمح مستقبلا باى زيادة .. الا نتيجة زيادة حتمية فى هذه العناصر وحتى يتحقق هذا لجأت المؤسسة الى أسلوب المناقصات فى اسناد الاعمال لشركاتها بخلاف أعمال التكليف المستعجلة ضمانا لحرية المنافسة .. مما يؤدى وبشكل جدى الى خفض أسـعار الانتاج واستطاعت المؤسسة من خلال دراستها أن تقيم عملية ضبط له ..

* تشغيل المعدات بكامل طاقتها الانتاجية :

التحكم فى العمالة بأنواعها الثلاثة . الدائمة والمؤقتة والتراحيل .. حتى لا تقع فى خطأ زيادة العمالة وتجعل هناك تناسبا بين العمالة وحجم الانتـــاج ..

* الحد من الاستهلاك .. خصوصا فى الوقود . والمواد الخام مما يحقق رقابة داخلية على العمل اثنـاء مرحـــلة التنفيـــذ ..

* الاعتمـــاد الكامل على الامكانيات الذاتية للشركات خصوصا بعد أن تفشت الاعمـــال من الباطن فى مقاولات القطاع العام . كما حددت نسبة ٣٠٪ فقط كحد أعلا لا يمكن تجاوزه لمثل هذه المقاولات وفى أعمال خاصـــة ..

* التصنيع المحـــلى لبعض المعـــدات نتيجة للجهود الذاتية ثم تصنيع وحـــدات لحفظ الاسفلت على الساخن .. وقد وفر هذا كثيرا من العملات الحرة التى تشترى بها هذه المعدات من الخارج ..

الخطـــة

من خلال هذا التطوير الواعى . والواضح . أعدت المؤسسة خطتها الخمسية الثالثة على أســـاس ربط باقى المراكز .. بعواصم المحافظات التى تتبعها بطرق مرصوفة مع رصف الطرق الواقعة شرق وغرب النيل فى الوجه القبلى وفى المناطق الماهولة .. مع استكمال رصف بعض الطرق الصحراوية . كما تضمنت الخطة تقوية بعض طرق الشبكة الحالية لمجابهة الزيادة فى النقل وحملة السيارات . كذلك وضعت فى الخطة انشاء مجموعة من الكبارى بدلا من الكبارى الحالية . التى تقل حمولتها عن الحمولة المقررة .. وانشاء كبارى

ـرق والـــكبارى وشركاتها

ـدة الاقتصادية الانتاجية

جديدة فى المناطق التى تتطلب ذلك وفى الخطة أيضا خصصت المؤسسة مبلغا كبيرا لاستكمال انشـــاء ورش وجراجات واحلال بدل المستهلك من المعدات . كما أعدت المؤسسة خطة كبيرة للتدريب بمركز التدريب التابع لها والذى أنشىء عام ١٩٥٥ .. بهدف تدريب العمال على قيادة وتشغيل المعدات الميكانيكية لصيانة وانشاء الطرق والمهندسين على أحدث ما وصل اليه العلم فى انشاء الطرق والكبارى ..

وخارج جمهورية مصر العربيـــة

* لم يتوقف العمل داخل جمهوريتنا .. بل أمتدت أعمال المؤسسة المصرية العامة للطرق والكبارى .. الى خـــارج الحـــدود ..

فهى تقوم بدراسة وتخطيط الطرق الموصلة بين الجمهورية العربية المتحـــدة ... وجمهورية السودان بجوار انشاء شبكة طرق تربط جميع أنحاء الجمهورية السودانية وقد تم فعلا توقيع الاتفاق الخاص بهـــذه المشروعات فى منتصف عام ١٩٦٩ وبدأ العمل بعد ذلك مباشرة فى أعمال البحث والتصميم لبعض الطرق التى حددتها جمهورية السودان الشقيق ..

* وانطلاقا من نفس القاعدة ــ قاعدة ميثاق طرابلس ، الذى ضم أولا .. مصر وليبيا والسودان ثم سوريا فيما بعد . ومن نفس القاعدة .. تم اتفاق الطرق السودانية ثم جاء اتفاق الطرق مع ليبيا ..

* فقد زار المهندس / سليمان متولى سليمان رئيس مجلس ادارة المؤسسة كلا من السودان حيث وقع الاتفاق ثم ليبيا حيث تم الاتفاق على أن يكون للمؤسسة مكتبا استشاريا لمصلحة الطرق والـــكبارى بالجمهورية العربية الليبية ..

* قد يكون هذا مجرد مرور سريع ... على نشاط المؤسسة المصرية العامة للطرق والكبارى لكنه مرور شامل .. خصوصا فيما يتعلق بعمليات التطوير الممتازة واقامة التكامل بين الدول الشقيقة الثلاث ..

* أن المؤسسة المصرية العـــامة للطرق والكبارى تعتبر نموذجا ممتـــازا .. للوحدة الاقتصـــادية والانتـــاجية ..

النقل البرى للركاب بالأقاليم



بقلم المهندس
سمير فهمى
رئيس مجلس ادارة شركة النيل
العامة لأوتوبيس شرق الدلتا

مشاكله الأساسية ودور
الادارة المحلية فى معالجة
هـذه المشـاكل

لعل مشكلة نقل الركاب بين المدن والاقاليم من بين أبرز التحديات التى تواجه مجتمعا ناميا يؤمن بحتمية التقدم والتطور ويؤمن بضرورة تطـويع العـلم .

والبحث الهادف لحل الاختناقات التى تواجه الوحدات الاقتصـادية فى جمهورية مصر العربية .

ولعل الكثير من المواطنين ، الجماهير المستفيدة من خدمة نقل الركاب بين الاقاليم تتساءل عن مدى نجاح التجربة الاشتراكية فى مجالات نقل الركاب بين المدن وتعقد المقارنات بين مستوى ادارة وأداء هذه المجموعة من المرافق وبين ادارة شركات نقل الركاب فى عهد الالتزام .

ان الاجابة على هذه التساؤلات تستلزم فى المقام الاول أن تتحدد بصورة واضحة أبعاد الاطار أو المناخ العام الذى تعمل شركات نقل الركاب بالاقاليم من خلاله حتى يمكن أن نصل بالتحليل الهـــادف لمقارنة عادلة وتقييم علمى لمستوى الاداء لهذه المجموعة من شركات القطاع العام . ان العديد من الابعاد المحددة لهذا المناخ العام تنبع أساسا من مجموعة الاختناقات الاســاسية المميزة لمرحلة الانطلاق فى المجتمعات النامية ، ومن الاعباء الاقتصادية التى تلقيها المراحل الاولى للتطبيق الاشتراكى وفلسفة هذا التطبيق على الوحدات الاقتصادية سواء من زاوية تثبيت فئات وأجور استخدام المرفق أو من زاوية التكلفة الاجتماعية للعمالة المرتبطة بفلسفة توفير فرصة العمل الشريف لكل مواطن .

النقل البرى للركاب وتدخل الثورة الاشتراكية : ـــ

وضعت التشريعات التى صدرت فى عام ١٩٥٠ والقانون التالى لها الصادر فى عام ١٩٥١ والخاص بتقسيم شبكات نقل الركاب بين المدن وفى الريف الى مناطق وخطوط سير معدلة موضع التنفيذ بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ مباشرة . كما تم ادخال نظام جديد لعقود الامتياز فى عام ١٩٥٣ متضمنا شروطا معينـــة اجبارية للتشغيل مثل تحديد مستوى المركبات المستخدمة ومستوى الامن والصيانة ومنشآت نهايات الخطوط ومسارات واعداد الادوار على كل خط من الخطوط والحد الاعلى لفئات الركوب على كل خط وبالنسبة لكل مسافة . كما كانت هناك شروط أخرى محددة بالنسبة لاستخدام الايدى العاملة من زوايا الاجر وساعات العمل والحوافز ونظم الرعاية الاجتماعية والطبية .

وقد مارست الدولة رقابة محكمة على النقل البرى للركاب وأصـــدرت العديد من التشريعات التى مكنتها من ممارسة سيطرتها وتدخلها لصـــالح الجماهير ولهدف حمايتها من براثن الملتزمين عن طريق هيئةعامة أنشئت فى عام ١٩٦٠ لهذا الغرض . كما قامت الدولة بفرض الحراســـة على بعض أصحاب المشروعات والملتزمين الذين لم يتمكنوا من العمل وفق نصـــوص عقود الامتياز وذلك فى سنوات ١٩٦٠ ، ١٩٦١ .

وفى يوليو ١٩٦١ طبقت قوانين التأميم الاشتراكية على جميع شركات نقل الركاب فى الاقاليم وبين المدن وكان هذا ايذانا ببدء عهد جديد فى مجال نقـــل الركاب .

بعض المشاكل التى واجهت عملية التقـــدم السريع لمرفق النقـــل البرى للركاب بالاقاليم .

واجهت ادارة شركات القطاع العام المنشأة حديثا لتشغيل وتنمية شبكة النقل البرى للركاب فى الاقاليم فى مصر عدة مشاكل وضغوط وقيود تعتبر من المشاكل أو السمات المميزة لمراحل النمو الاقتصادى كما كانت هناك قيود أخرى استتبعت طبيعة المشاكل الموروثة من فترة الالتزام والمرتبطة بالاستغلال اللا أخلاقى للجماهير فى فترة ما قبل التأميم بمعرفة أصحاب سيارات القطاع الخاص تلك التصرفات المرتبطة بعنصر المنافسة وباتجاهات تحقيق أكبر ربح ممكن وبالحد من الاستثمارات وباستغلال القوى البشرية العاملة فى هـــذه الوحدات الاقتصادية . وسنحاول أن نلقى الضوء على أهم هذه الاختناقات

أملا فى ابراز معالم الاطار الذى أسندت من خلاله مسئولية تشغيل هذه المرافق لشركات القطاع العام .

نقص المعلومات والبيانات الاحصائية

تعتبر هذه المشكلة عامة بالنسبة لاقتصاديات الدول النامية ومؤثرة من حيث اتاحة الفرصة لوضع الخطط الاستثمارية أو خطط التشغيل للمرفق .

فقد كان أصحاب شركات الامتياز من الملتزمين بمالهم من تفكير فى اتجاه واحد ومحدد مهتمون بتحقيق الربح فى المدى القريب متجاهلين تمام التجاهل اعتبارات التخطيط للمدى البعيد . ومن هنا برزت أهمية التخطيط للشركات الجديدة فى ظل التطبيق الاشتراكى . وفى غياب أية بيانات احصائية كانت أى عملية لتقدير حجم الطلب على الخدمة فى المستقبل أو دراسة تأثير المنافسة وموسمية الطلب ودراسة الخصائص البارزة للتشغيل من أصعب الامور .

وقد أدخل نظام الكشوف الدورية والبيانات الاحصائية على الفور وأمكن بذلك تقدير الطلب فى المستقبل بسهولة . ونتيجة لتحسن الموقف قامت بعض الدراسات المفيدة مستخدمة الاساليب الحديثة وبحوث العمليات كما قامت بحوث عن التشغيل بهدف ادخال التحسينات على كفاءة التشغيل فى أساطيل هذه الشركات ومقابلة الطلب المتذبذب والموسمى لهذه الخدمة بقدر الامكان . وقد قامت **شركة أتوبيس شرق الدلتا** بدراسة فى هذا الصدد بالتعاون مع مركز الرياضيات التابع لمعهد التخطيط القومى .

الاستثمار المحدود لرأس المال

تعتبر ندرة الاستثمارات المتاحة احدى المشاكل الرئيسية للدول النامية . وجمهورية مصر العربية باعتبارها دولة نامية تطبق التخطيط المركزى فى عملية التنمية الاقتصادية وضعت أولويات للتنمية خلال المرحلة الاولى التى بدأت سنة ١٩٥٩ بالنسبة لقطاعى الزراعة والصناعة .

وحيث أن النقل اعتبر كانتاج من الدرجة الثالثة فقد أعطى أهمية أقل فى الخطة الخمسية الاولى للتنمية . وببداية خطة السنوات الخمس الثانية للتنمية الاقتصادية خصصت استثمارات أكبر للخدمات العامة بما فى ذلك المواصلات وبذلك بدأ الموقف فى التحسن . وبرغم الضغوط الاقتصادية التى مارستها الدول الاستعمارية فى مناسبات مختلفة (ما بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧) والاعتداءات المتكررة على جمهورية مصر العربية بواسطة اسرائيل والدول الاستعمارية استمر النمو الاقتصادى بمعدل يعتبر مذهلا ومرضيا للغاية بالنسبة لشعب جمهورية مصر العربية ..

ولا يجب أن نتجاهل الموارد الاقتصادية والمصروفات الرأسمالية التى استنفدت فى الحفاظ على الانجازات الثورية التى حققها النظام الاقتصادى لجمهورية مصر العربية تحت الظروف التى سبق ذكرها والتى كان يمكن أن تستخدم استخداما مفيدا فى الاسراع بعملية التنمية .

المساعدات الاجنبيـــه

فلما إستفاد مرفق النقل فى جمهورية مصر العربية كقطاع عام من المعرفة الاجنبية . فقد قامت الجهود الوطنية بتمويل وادارة جميع مشروعات التنمية فى هذا القطاع بالذات وربما كانت هذه حالة فريدة بين تجارب الدول النامية الاخـــرى .

مقاييس تكنولوجية

تتولى شركة النصر لصناعة السيارات انتاج الاتوبيسات فى جمهورية مصر العربية كما تتولى انتاج أنواع أخرى من العربات والجرارات الزراعية .

ويتم ذلك عن طريق انتاج تجميعى متكامل بناء على تصريح واتفاقية معقودة مع شركة دويتس الالمانية . يتم انتاج معظم الاجزاء الخاصة بالعربات محليا بينما تستورد الشركة نسبة مئوية قليلة من بعض الوحدات والاجزاء الاخرى لتجميعها محليا ، ومعظم الصناعات المغذية لصناعة السيارات يتم انتاجها محليا فى شركات تأسست أخيرا فى اطار خطة التصنيع فى جمهورية مصر العربيـــة .

وبالنظر الى تطور المقاييس التكنولوجية فى جمهورية مصر العربية نسبيا ، فان نوع العربات المنتجة يعتبر مرضى تماما ، كما وأن التشغيل يعتبر مقبولا فى أى مستوى .

غير أن عنصر النقد الاجنبى يلعب دورا خاصا بالنسبة لتأثيره على مستوى الاسعار وذلك بخلاف اعتبارات أخرى بسيطة لا يعتد بها خاصة بالشركة نفسها والتى يجرى التغلب عليها تدريجيا عن طريق التدريب ورفع المهـــارة للعمال وكذلك عن طريق التغييرات التى تمت أخيرا بالنسبة لتصـــميمات المصـــنع .

وفى مجال المقاييس التكنولوجية الخاصة بتخطيط وتنمية وتشغيل وصيانة سيارات الركاب يلاحظ أن المشاكل الحقيقية تظهر بصفة خاصة فى المرحلة التى أعقبت التأميم .

وقد زاد فى حدة المشكلة الى حد كبير الحالة التى يرثى لها التى كان عليها أسطول الاتوبيسات المؤممة فقد كانت أغلب هذه الاتوبيسات قد تعدت عمرها من ناحية التشغيل الاقتصادى . كما كان تغيير هذا العدد الكبير من العربات بالكامل فى فترة قصيرة أمر لا يدركه العقل بالنسبة لما يترتب على ذلك من رأس المال المستثمر واعتبارات العملة الصعبة والعدد المحدود من الاتوبيسات المنتجة فى تلك المرحلة .

وثمة مشكلة أخرى ورثتها الشركات وهى تعدد ماركات الاتوبيسات التى تتكون منها أساطيل النقل فى كل من شركات القطاع العام الاربع التى تقوم بهذه المهمة واذ بلغت هذه المشكلة حد أن كل شركة تستخدم ما لا يقل عن ١٥ ماركة ونوعا من هذه الاتوبيسات .

وناهيك عما ترتب على ذلك من المصـــاعب التى نشأت عن الصـــيانة والتخزين وقطع الغيار وايجاد أوامر ثابتة واضحة لتطبيقها فى هذه المجالات .

كل ذلك مضافا اليه ما تتميز به المستويات الفنية العادية لاى اقتصاد نام قاد الى مشاكل عويصة طلب من الادارة الجديدة أن تتغلب عليها .

وقد نجحت هذه الادارة فى التغلب على بعض هذه المشاكل الى الان ولكن مازال هناك الكثير من المشاكل التى تتطلب الحل .

الاثمان والاسعار

كان من نتيجة التنافس الحاد بين الملتزمين فى الفترة الســـابقة للتأميم للحصول على امتياز فى بعض المناطق والخطوط أن انخفضت أسعار الخدمة بدرجة كبيرة بغض النظر عن اعتبارات مبدأ العرض والطلب . وأدى ذلك الى مشكلة أخرى واجهت شركات القطاع العام الجديدة .

فقد كان من المتعذر على ادارة القطاع العام احداث تغيير فى تلك الاســـعار المنخفضة وغير الواقعيـــة وذلك لاعتبارات سياسية خاصـــة بالفلســـفة الاشتراكية . ولم يسمح باعانة حكومية وبذلك كان على الادارة أن تقـــوم بمعجزات لتحقيق أهداف الارباح خصوصا متى أخذنا فى الاعتبار استمرار ارتفاع أثمان قطع الغيار والاطارات والوقود والشحومات بخلاف تحســـين اجور العمال وظروف استخدامهم نتيجة للمكاسب الاشتراكية التى حققتها لهم الثـــورة .

وفى هذا الصدد تجدر الاشارة الى أن أسعار الركوب على الخطوط التى تعمل بين المدن والمناطق الريفية بقيت بدون تغيير منذ تم التأميم حتى نهاية سنة ١٩٦٨ عندما ارتفعت ارتفاعا طفيفا الى مستويات أقل من الحد الاعلى للتعريفة المحددة عام ١٩٥٤ بناء على اتفاقيات الامتياز .

مشاكل الايدى العـــاملة

مما لا شك فيه أن تأميم قطاع نقل الركاب شهد تحسنا جوهريا وضخما فى أحوال العاملين تمشيا مع الاتجاهات الاقتصادية الاشتراكية .

أقيمت برامج تدريبية على مختلف المستويات فى المؤسسة كما وجـــدت الحلول لمشاكل العمال التى نشأت عن اندماج الشركات السابقة وذلك فى اطار بعض القوانين والقواعد التى أصدرتها الجهات المختصة فى مجال استخدام العمـــال .

الدور الذى يمكن للادارة المحلية القيام به دعما للمرافق

لا شك أن الادارة المحلية بعد القرارات الثورية الاخيرة التى أعطت لها دفعة ايجابية هائلة فى سبيل ممارسة العمل بلا مركزية مطلقة وبعد انشاء المجالس الشعبية الاقليمية والمجالس التنفيـــذية بالمحافظات قد توفرت لها المقومات الفعالة والمؤثرة التى تستطيع من خلالها أن تقدم بدورها دفعة قوية

ومخلصة لمعاونة شركات نقل الركاب بالاقاليم فى توعية الجماهير بظـروف ومحددات خدمة نقل الركاب وتوعية جماهير العاملين بالمرفق على المستويات الاقليمية بواجبهم نحو مواطنيهم بالنسبة لمفهوم تأدية الخدمة من زوايا : —

١ — سلوك العاملين فى مواجهة جمهور المواطنين مستخدمى الخدمة .

٢ — سلوك العاملين بالنسبة لاهمية العناية بالملكية العامة والاضرار على نجاح تجربتنا الاشتراكية الرائدة .

٣ — العناية بصيانة السيارات والمحافظة عليها .

٤ — احترام مواعيد الخدمة ومساراتها والحد من سقوط الادوار ولعل الدعم الذى يمكن أن تقدمه الادارة المحلية بالاضافة الى ما تستطيع الادارة التنفيذية لهذه المرافق تقديمه لابنائها من العاملين من عوامل التحفيز وربط الاجر بالانتاج قادران على تطوير أسلوب تشغيل هذه المرافق تطويرا جذريا يتلاءم وطبيعة المرحلة التى نمر بها .

كذلك يمكن لاجهزة الادارة المحلية من خلال ممارسة سلطتها الشرعية فى الرقابة على وسائل الانتاج المملوكة للقطاع العام تبصير القيادات التنفيذية المركزية لهذه المرافق بنواحى القصور والانحراف معاونة لهذه الاجهزة فى وضع الاسس والقواعد التى يمكن من خلالها ازالة أسباب شكوى الجماهير ومتاعبهـــا .

كما اننا ننادى بعقد المؤتمرات الموسعة التى تدرس فيها ظروف تشغيل هذه المرافق على مستوى المحافظات فى ندوات يحضرها المسئولون من قيادات مرافق النقل التنفيذية لمناقشة المشاكل على الطبيعة ومحاولة الوصول الى حلول لاختناقات الانتاج وتطوير شبكات الخطوط وظروف الخدمة فى حدود الطاقات والامكانيات المتاحة لهذه المرافق فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل نضال أمتنا الصامدة ضد الاستعمار والامبريالية وضـــد أطماع المعتـــدى الغاصب .

والله ولى التوفيق

المؤسسة المصرية العامة للائتمان الزراعى والتعاونى

المؤسسة هى الدعامة الأساسية للاقتصاد الزراعى — فهى التى تساند الزراع وتعاونهم بتقديم كافة التسهيلات اللازمة لهم لإنتاج محصولات أوفر وأفضل حيث تمدهم بالأموال لخدمة الزراعة والجنى والتسويق كما تمدهم بالقروض العينية الأخرى فى صورة تقاوى محسنة وأسمدة كيماوية ومبيدات وحشرية وكذلك الكسب والعلف لتنمية الثروة الحيوانية وخدمات أخرى متنوعة تتمثل فى شراء الآلات والجرارات الزراعية لجمعياتهم التعاونية وتوفير الوقود اللازم لتشغيلها وصيانتها كخطوة هامة نحو تطوير الزراعة وميكنتها والحصول منها على إنتاج أفضل .

مطابع الاهـرام التجارية

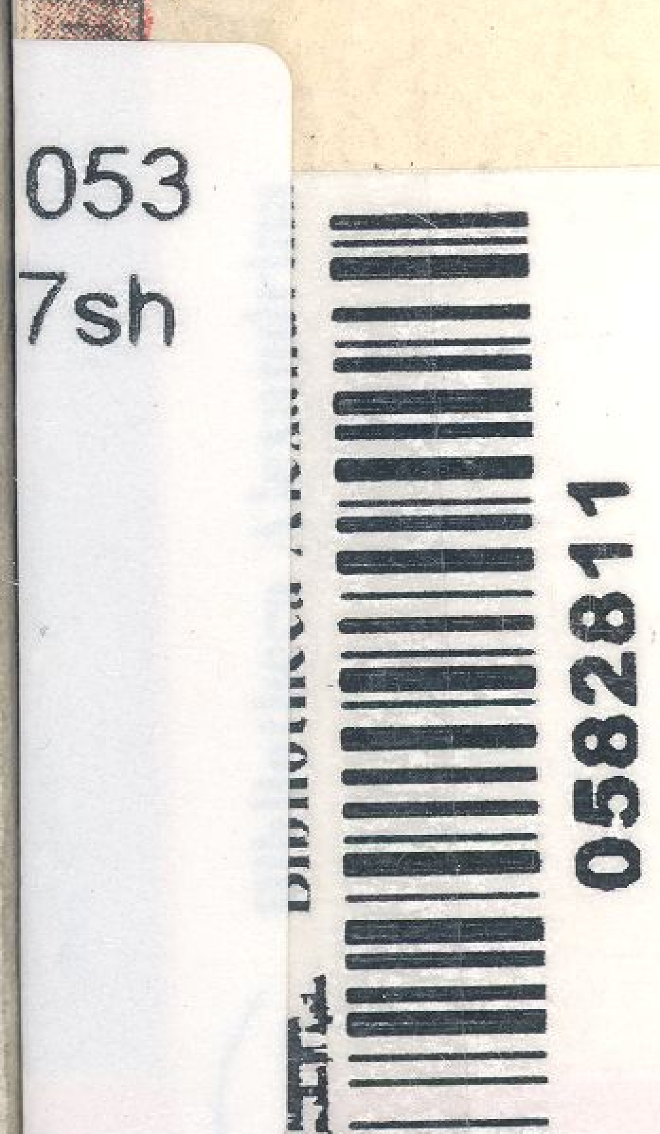
رقم الايداع بدار الكتب

١٥١٠ / ١٩٧١

يحاول هذا الكتاب أن يكشف عن الشخصية المصرية فى طبيعتها وحقيقتها التى أخذت تسفر عنها خلال الفترة التى تناولها الكتاب ، وكان عبدالناصر أصدق مثل لها .

ومن أجل ذلك تتبع الكتاب جذور شخصية مصر العربية فى تكاملها عبر التاريخ وكيف أنها رغم المحن والنوازل التى أحاطت بها لم تفقد مقوماتها الأصلية ، وإن حاولت الظروف التى تعاورتها طمس هذه المقومات . فقد بقيت شخصية مصر العربية قوية أصيلة ، وقد أسهم فى كشف الغبار عن المقومات رجال الفكر المصرى الحديث ابتداء من رفاعة الطهطاوى ثم لطفى السيد وحتى جمال عبد الناصر الذى أعاد بناء هذه الشخصية المصرية على شكلها المعاصر .

وفى هذه الفصول الممتعة ، نقرأ كل ذلك ، ونعيشه ، وننفعل به ...



الثمن ٦٠ ص

توزيع الاهـرام